أعلام العرب

٧٦

صقر قريش

عبد الرحمن الداخل

تأليف :

عبادة عبد الرحمن كحيلة

تقديم :

محمد عبد الغني حسن

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

مارس ١٩٦٨

أعلام العرب

٧٦

صقر قريش

عبد الرحمن الداخل

تأليف :

عبادة عبد الرحمن كحيلة

تقديم :

محمد عبد الغني حسن

تقـــديم

بقلم : الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

ما كنت أحب أن يتولى تقديم هذا الكتاب أحد غير مؤلفه ، فهو أدرى بكتابه ، وأدرى بالجهد الذى بذله فيه ، وبالقراءات الكثيرة التى رجع اليها فى مصادر ومراجع عربية وغـــير عربية ، ليستقيم له من ذلك كله دراسة متكاملة لشخصية عبـــد الرحمن ابن معاوية بن هشام الذى طوحت به همته البعيدة من أرض أسرته ودولة آبائه الأمويين بالشام ، الى أرض الأندلس ، حيث نقل ملك الأمويين من الشرق الى الغرب ، وكان أول مؤسس لدولة بنى أمية بالأندلس .

واذا لم يكن لمؤلف هذا الكتاب سابقة قدم فى التأليف تجيز له تقديم كتابه البكر هذا دون حاجة الى التماس المقدمات ، فان كتابه هذا ـــ فى الحق ـــ يعد تقديما كريما واعيا لما نرجوه بعد ذلك منه من دراسات لشخصيات تاريخية عربية كان حظها من التأليف عنها دون حظها من العمل العظيم الذى قامت به .

وعبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، أو عبد الرحمن الداخل ، أو صقر قريش هو من الشخصيات العربية التى ضن عليها كتاب السير والتراجم ـــ على مدار اثنى عشر قرنا ـــ بدراسة خاصة ، أو ترجمة مستقلة فى كتاب قائم بذاته ، الا ما كان من تلك السيرة الدقيقة التحليلية البارعة التى أخرجها الأستاذ على أدهم منـــذ اكثر من ربع قرن ، واجعلتهـــا مجلة المقتطف ـــ نضر الله أيامها

الذواهب — . هدية الى قرائها ، فكانت من كتب التراجم القليلة التى ألقت على الشخصية التى تدرسها ، وعلى العصر المحيط بها أضواء كاشفة كان قراء التاريخ الأندلسى فى حاجة اليها .

فان العصر الذى مهد لمجىء صقر قريش الى الأندلس كان عصرا حافلا بالخلافات ، مشغولا بالنزعات والعصبيات ، مملوءا بالاضطرابات . وكان تناقض الأخبار فيه مما لا يدع للاطمئنان سبيلا الى قلب القارىء ، وكان تقلب الأهواء والآراء والأشخاص فيه مما يقع معه القارىء فى حيرة وبلبلة . فلما جاء الأستاذ على أدهم بكتابه ، وضح معالم الطريق بما جعل من تلك الحقبة المظلمة المضطربة حقبة مكشوفة المعالم ، واضحة السمات .

وعلى ضوء الدراسة الجادة الوحيدة التى أتحف بها الأستاذ على أدهم أدب التراجم فيما يتصل بشخصية عبد الرحمن الداخل وحياته ، جاء الأديب المجتهد ، المعنى بتاريخ العرب والاسلام ، الأستاذ عبادة عبد الرحمن كحيلة ، فأحب أن لا تكون دراسة الأستاذ على أدهم يتيمة فى المكتبة العربية ، فآنس وحدتها بكتابه هذا الذى كان من حظى أن أقدمه اليوم فى هذه السطور .

والحق ان ثمانية وعشرين عاما ، منذ صدور دراسة الأستاذ على أدهم لحياة عبد الرحمن الداخل ، قد أمدت الميدان بطائفة من المراجع ، وأضافت طائفة من البحوث ، أفاد منها الأستاذ عبادة كحيلة افادة تامة فلم يغفل ما ظهر أثر ذلك من دراسات ، ولم يدع مصدرا كتب عن صقر قريش الا رجع اليه ، وأخذ منه ، واستأنس به ، حتى بلغ مجموع مراجعه بضعة وأربعين مرجعا ..

وماذا تفيد كثرة المراجع — أو التكثر منها — اذا لم يكن المؤلف قد قرأها قراءة واعية ، وقابل بين نصوصها فى الحادث الواحد ، ووقف على رأى أصحابها ومتجههم فى الحكم ؟؟ وهذا

ما يبدو واضحا فيما كتبه الأستاذ عبادة هنا . فأنا مطمئن الى انه لم يكن ناقلا وحسب ، ولكنه كان باحثا ، ومستنبطا حسن الاستنباط ، ومعتمدا لأرجح الروايات التى تنفى — فى نظر التقدير التاريخى السليم كل مالا يرتفع الى قدرها من الروايات ، ومناقشا ومناقضا لكبار المؤرخين وعلى رأسهم دوزى ، كما يبدو فى غير موضع .

ولا ادرى — مع هذا التحقيق فى انتقاء الرواية — كيف تغلبه — بعض الحين — بعض الروايات غير المحققة علميا ، فيهوى الى ايرادها ، لاعتبارات تتنافى مع العلم ، كشهرتها أو كثرة ترددها فى كتب التاريخ ، كما فعل فى أواخر الفصل الثانى من هذا الكتاب. ولعل المؤلف هنا قد استهوته غرابة الشخصية التى يترجم لها ويؤرخ حياتها . فانساق الى ايراد أغرب الروايات ولو كانت متجافية مع أصول المنهج ، وقواعد العلم .

والحق أن شخصية عبد الرحمن الداخل مما يغرى بأن تحاك حولها الأساطير ، ولكن الوقائع والحقائق التى أحاطت بالرجل كانت أكثر صدقا من أن تكون منسجا لأسطورة ... فقد كان كبير النفس ، كبير العقل ، ضابطا لنفسه ، ولا أدل على كبر عقله من أنه قدم اليه ساعة نزوله من البحر الى أرض الأندلس بعض الخمر ، ليسترد بها ما اضاعته أهوال الرحلة من نشاط وراحة ، فرفض الخمر قائلا لمن قدموها اليه : (انى محتاج الى ما يزيد فى عقلى ، لا الى ما ينقصه) .

وعلى الرغم من هذه الملاحظة وأشباهها على هذا الكتاب الجديد المفيد فان ما فيه من حسنات التحقيق ، والتعمق ، وتوضيح ملامح العصر ، وضبط الأعلام الفرنجية الكثيرة وايراد مقابلها بالحروف الأوربية ، ليجعل منه اضافة مفيدة الى ما سبق عن «صقر قريش» من دراسات واشارات .

ولعل الأستاذ عبادة كحيلة ـ وقد دخل أرض الأندلس ببحوثه ودراساته ـ يجعل من هذا الميدان العربى الاسلامى القليل الطراق مجالا لجهوده التاريخية الموفقة .

وأظنه ـ بل أراه ـ فاعلا أن شاء الله .

محمد عبد الغنى حسن

مقدمة



بسم الله الرحمن الرحيم

شخصية فريدة قديرة مستنيرة ، هذا جماع ما يمكن ان يطلق على فتى أمية الذى نحن بصدد الحديث عنه ، هو ابن عصره وهو ابن جميع العصور لا يجب أن يغفله المؤرخ فى تاريخه والأديب فى أدبه والعالم فى علمه ، أو من الممكن أن تقول ان عبد الرحمن شخصية نموذجية ، تحتاج الى تحليل وتفسير من جوانب شتى .

ومن عجب أن عبد الرحمن هذا رغم شهرته لم يحظ بالعناية اللازمة من جانب الكتاب المعاصرين ، بل ربما كان موسى بن نصير أو طارق بن زياد أشهر بكثير ، مع ان له من صفات القيادة والريادة ما يجعله نديدا لأبى جعفر المنصور وشارلمان ، وهما أكبر رجال عصره وربما جاء هذا الاغفال لأن الاهتمام بالأندلسيات وما يتفرع عنها من تاريخ وأدب نشأ متأخرا ، وربما أيضا لأن بنى أمية ذوو تاريخ يمس أوتارا حساسة عند المسلمين أو لاعتقاد البعض أن الدولة الاموية ماتت بموت مروان بن محمد آخر خلفائها فى المشرق .

ولا أظن أن ماكتب عن عبد الرحمن فى السنوات الثلاثين الماضية يعدو ثلاثة كتب ، واحدا فى أدب الترجمة للأستاذ على أدهم ، والآخر فى قالب الرواية للأستاذ كرم ملحم كرم ، والأخير فى باب المسرحية للأستاذ محمود تيمور .

وقد أفادت هذه الكتب الثلاثة فى توضيح الصورة العامة لعبد الرحمن ، رغم قلة المراجع وغموض الشخصية وتناقض

الآراء ازاءها ، أو قل هي محاولات رائدة في هذا السبيل كانت لها انجازاتها الموفقة .

ولا يخفى انحياز كاتب هذه السطور الى كتاب الأستاذ على أدهم ، فهو كاتب تراجم قدير ، جمع في كتابه بين الحقيقة التاريخية والحبكة الروائية مع تحليل وافر للشخصية ، أما كرم ملحم فانه لم يستفد من كل الخطوط الدرامية في حياة عبد الرحمن وهي حياة حافلة بالأحداث ، كما أن مسرحية تيمور ليست أروع أعماله الأدبية .

وعلى الرغم من التوفيقات التي توصل اليها هؤلاء الكتاب في تناولهم لحياة بطل كعبد الرحمن ، فان هذا لا يمنع جيلا جديدا من الكتاب من الخوض في هذا الموضوع ، فقد يضيف شيئا أو يصحح فكرة أو يعرض رأيا ، خاصة بعد الاهتمام الحديث بالأندلسيات وظهور الكتب الضافية عنها في الشرق والغرب .

اذن فقد كان ذلك سببا في أن المؤلف حاول أن يشارك في الترجمة لعبد الرحمن ، وكان السبب الآخر والأهم في تقديره هو اعجابه بعبد الرحمن .

هذا ... وليس من قبيل الصدف ان كان منهجنا في هذا الكتاب متفقا مع من سبقنا في أشياء ومختلفا عنهم في أشياء أخرى. فقد أولينا اهتماما كبيرا للعنصر التاريخي في شخصية عبد الرحمن ، باعتباره مؤسس الدولة الأموية في الأندلس ، وما يتبع ذلك من تنقيب في بطون الكتب قديمة وحديثة قدر الاستطاعة ، كما لم نغفل العنصر الدرامي فيه ، وهذا ما جعل الكتاب أشبه بقصة تاريخية طويلة متعددة الأحداث والأجواء والمناظر .

ويقف الى جانب هذين الخطين خط ثالث ، وهو خط الترجمة الأدبية وما يتبعه من محاولة لتحليل الجوانب الظاهرة والغامضة

فى حياة عبد الرحمن ، وهذا ما يتضح بصفة خاصة فى الفصل الأخير من الكتاب .

وبعد .. فاننا نكتفى بالمقدمة الى هذا الحد ، ونرجو الا نكون قد أطلنا على القارىء فيما يجده بالتفصيل خلال الكتاب ... فلندعه واياه .

عبادة عبد الرحمن رضا كحيلة

الفصل الأول

خريف أمية

ميلاد بطل ـ نبوءة مسلمة بن عبد الملك ـ سارة القوطية ـ ثورات الشيعة ـ عبد الرحمن فى صباه ـ تدهور أمر الأمويين ـ العباسيون يتزعمون الثورة ـ الصراع بين نصر بن سيار وأبى مسلم الخراسانى ـ معركة الزاب سنة ١٣٢ ونهاية الدولة الأموية .

« دعه يا أمير المؤمنين ..
هذا صاحب بني أمية ووزرهم
عند زوال ملكهم فاستوص به
خيرا » .

مسلمة بن عبد الملك

في يوم لا يذكره ذاكر (١) ، والعصر عصر هشام (٢) ، خرج الى الدنيا ذلك الصغير العزيز ، وكان والده سيدا من سادات أمية ، قضى زهرة شبابه في جهاد علوج الروم بين طعن القنا وخبط الرماح . وكانت والدته أم ولد بربرية ، ولا نعرف كيف التقت راح – وهذا اسمها – بمعاوية بن هشام والد ذلك المولود الميمون الطالع ، غير أنها كانت من سبي بربر نفزة ، وقد أوقع بهم العرب وقعات .

ولد هذا الصغير بدير حنا من أعمال دمشق أو بالعلياء من أرض تدمر فتلقفته عناية من الأفئدة والعيون ومن الصغير والكبير ، لا يرد له طلب ، ولا يمنع عندما يريد ، ولم يجد من الجميع غير بسمة

---

(١) سنة ١١٣ .

(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان ١٠٥ – ١٢٥ هـ

هادئة ونظرة حانية وود لا يغيب ، ولكن الحياة لا تسير فى طريق واحـــد ولا فى سبيل مستمر ، فان الأب الشاب الذى لم تنله سيوف الروم ناله أخيرا ما ينال الجميع ، وشرب من نفس المعين الذى شربت منها قبلا أجيال بنى الانسان . والطبرى وهو الحريص على تتبع غزوات معاوية الشاب نجده يتوقف عند سنة ١١٨ .. وكانت تلك آخر مغازيه ، فقد مات بعد أوبته الى جاضرة الخلافة بقليل .

كان الصبية صغارا فقد مات أبوهم وهو بعـــد لم يتعد نيفا وعشرين ، وكان حزن جدهم خليفة رسول الله لا يقدر ، فقد كان معاوية من أعز ابنائه على نفسه ومن أقربهم الى فؤاده ، وكان يود أن يجعله ولى عهده لولا ما وعد به أخاه يزيد (١) بأن يستخلف ولده الوليد . ولكن الأب المكلوم لم يجد الا ان يقيم لولده قبرا اجتهد أن يجعله الأول بين أقرانه ، وبه استجار الكميت شـــاعر آل البيت حين أهدر الخليفة دمه .. فكان نعم الملجأ ونعم الملاذ .

وبقدر ما كان الخليفة عظيما فى ملكه عظيما فى خلافته ، كان عظيما أيضا بين أهله وأسرته ، فها هو ذا قد كفل عبـــد الرحمن الصغـــير واخوته ، وأجرى عليهـم الأرزاق ، ووهبهـم جميع الأخماس (٢) التى اجتمعت للخلفاء بالأندلس وأقطعهم اياها ووجه لحيازتها من الشام واحدا من سادات العرب . وان عبد الرحمن ليذكر ذلك اليوم الذى دخل فيه وهو صبى على جده ، وكان عنده أخوه مسلمة يحادثه أحاديث الساسة ، فأمر هشام بأن ينحى الصغير عنهما ، ولكن مسلمة ــ وكان ثاقب البصيرة نافذ الرأى ــ خاطب أخاه : « دعه يا أمير المؤمنين » ثم ضمه الى صدره واستطرد :

---

(١) يزيد بن عبد الملك بن مروان ١٠١ ــ ١٠٥ هـ

(٢) كان للأسرة الأموية فى ذلك الوقت خمس ما يجتمع لدى المسلمين من مغانم الحرب .

« يا أمير المؤمنين هذا صاحب بنى أمية ووزرهم عند زوال ملكهم فاستوص به خيرا » .

وانه ليذكر أيضا فى صباه أن دخلت عليه وهو بمجلس هشام سارة القوطية ، وسارة هذه يعرفها عرب الأندلس وبخاصة جيل الفتح ، وكان أبوها وأعمامها سلالة ملوك القوط الذين حالفوا العرب الفاتحين ضد من اغتصب ملكهم ، فسهلوا أمر الفتح ويسروا سبيله ، وعندما خلص الأندلس للعرب أجازوهم ضياعهم الفسيحة التى ضاعت منهم وزادوا عليها . وبعد سنين مات أبوها فوضع عمها أرطباس Artevasdes يديه على أملاكه وحرم أولاد أخيه منها ، فتوجهت سارة مع أخوين صغيرين لها الى الشام ، وسعت حتى نزلت بباب هشام ، وانهت اليه بخبرها والعهد المنعقد لأبيها على الوليد بن عبد الملك (١) ، وتظلمت اليه من عمها ، فأعجب هشام بقولها وقضى لها حاجتها وأنصف قضيتها ... وقبل أن تغادر مجلسه لمحت عبد الرحمن وهو لا يزال صبيا صغيرا بين يدى جده وكان فى عينيها بريق استغربه عبد الرحمن وتفكر ما هو ، ربما لأنها سوف تلقاه بعد وفى مكان بعيد لم يكن ليتصوره الآن وهو يدرج مدارج الطفولة ، ولربما عاشت سارة حتى ذلك الحين .. وعاشت وسنرى .

لم تكن أيام هذا الصغير كلها سعادة وهناءة ودعة ، ذلك لأن هشاما كان آخر من سلك طريق المجد من بنى أمية ، وكان فى أواسط العقد السادس من عمره حين التحق بالرفيق الأعلى ، وبعده اضطرب حبل بنى أمية وتداعت أمورهم وقتل بعضهم بعضا . يقول الأمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير (لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بنى أمية ، وتولى وأدبر

---

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان ٨٦ ــ ٩٦ هـ .
وفى عهده أفتتحت الأندلس ..

أمر الجهاد فى سبيل الله ، واضطرب أمرهم وان كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحوا من سبع سنين ، ولكن فى اختلاف وهيج وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس ، فاستلبوهم نعمتهم وملكهم وقتلوا منهم خلقا وسلبوهم الخلافة) .

كانت دولة بنى أمية هى دولة العرب ، وكان العرب فى العصر الأول ــ عصر الراشدين والأمويين ــ هم سادة العالم ، فهم الذين قوضوا عروش قيصر وكسرى ، وامتد سلطانهم من سور الصين حتى كانوا فى أحد الأيام يتنزهون على ضفاف الأوار ــ اللوار ــ ولم يك ينتظر أحد أن تنتهى دولة بنى عبد شمس (١) فى حياة رجل مديد العمر ، ذلك أن بنى أمية كانوا طوال عمرهم أقوياء عتاة فى دولة قوية عاتية ، ترد كيد الزمان وتعاديه اذا كاد أو عدا ، واستمروا على ذلك ــ الى أواخر أيامهم التى تنتهى حقيقة بهشام ، ولكن ثمة سياسة اتبعوها منذ عهد معاوية هى التى حملت جرثومة دولة بنى العباس ، ولم يحاول خلفاؤه ولا خلفاء خلفائه أن يغيروا من هذه السياسة .

والحديث ــ لو تكلمنا ــ يطول ، وكلنا يعرف معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنه ، وهو الذى حمل ميراث عثمان وقميصه الدامى ونادى بثأره واتهم فى ذلك خير بنى هاشم وأبعدهم عن الشبهة على بن أبى طالب كرم الله وجهه . واندلعت نيران حرب أهلية مريرة استمرت خمس سنوات ، وانتهت بأن أغتيل الامام بيدى نفر من مراق الخوارج فى مسجد الكوفة ، ثم تنازل ولده الأكبر عن الخلافة لمعاوية حقنا للدماء ، ومات الحسن فى ظروف مريبة ، وكان زعيم الشيعة بعده هو الحسين بن على سبط رسول الله وسيد شباب أهل الجنة وكان قد نقم على معاوية أن جعل الخلافة كسروية حين عهد الى ولده يزيد بالأمر من بعده .

---

(١) فى كتابنا هذا عبد شمس وأمية ومروان أسماء مترادفة ..

ثار الحسين وكاتبه أهل العراق ، وأعلموه بخلافهم ليزيد ، فحمل أهله وولده وأولاد أعمامه ومواليه وبعض شباب العرب الذين لم يرضوا الا بأن يعود الحق الى أهله . ولكن يزيد كان عنيفا وقاسيا حين أرسل الألوف من أصحابه فقتلوا الحسين وصحبه فى كربلاء (١) ، وحمل رأسه الى ابن مرجانة وهو عبيد الله بن زياد الدعى ؛ ثم طيف به حتى وصل الى دمشق ، واختفى الرأس كما اختفى الجسد ، ولم يعرف للحسين مقر اتفق عليه الرواة .

لم يقتنع بنو أمية بما جرى من أمور لا يقرها شرع ولا دين ، وتوالت مقاتل الطالبيين فثار زيد بن على زين العابدين بن الحسين فى نفر من أصحابه ، ولكن جيوش الخلافة اغتالته ، فدفنه أصحابه فى ساقية ماء ، وجعلوا على قبره الحشيش والتراب ، وأجروا الماء على ذلك ، ولكن القبر لم يختف عن عيون الأعداء ، فاستخرجوه وبعث بالرأس الى هشام ، كما صلب الجسد عريانا ، ثم أحرق وذر رماده ليذوب فى الفرات . وفى عهد الوليد بن يزيد خرج يحيى ابن زيد ، ولكنه غلب على أمره ، وأصابه سهم فى صدغه فمات لساعته ، واحتز رأسه وأرسل الى الوليد وصلب الجسد ، ثم أحرق حتى صار رمادا تذروه الرياح .

ولكن الأحقاد الكامنة فى نفوس بنى هاشم لم تمت ، فقد انتظروا دورة الزمان ليدوروا هم على هذه الدولة التى ظلمتهم وضيعت الحق منهم ، وهم الآن وبعد ان وجدوا أن الدولة هى دولة العرب لم يجدوا الا ان يتجهوا الى الموالى يطلبون النصرة والمعونة ، وقد شايعتهم فى ذلك بعض أحزاب العرب وبخاصة من اليمانية (٢) الحانقين على خلفاء بنى أمية المتأخرين ، كما أيدهم

---

(١) نظرا لهذا الخطب الجليل فقد فسر البعض الاسم بأنه يجمع بين الكرب والبــلاء .

(٢) أو اليمنية وسوف يتردد ذكرهم كثيرا فى هذا الكتاب وهم عرب الجنوب القحطانيون .

ما جرى بعد هشام بن عبد الملك من اختلال الأمور فقد ثار بنو أمية على الوليد الفاسق (١) بن يزيد عبد الملك الذى جر على تلك الدولة الكثير من النكبات ، وفى أحداث تلك المعمعة قتل الوليد ، وخلفه ابن عمه يزيد (٢) الناقص بن الوليد بن عبد الملك ، ولكن عهده لم يطل فمات بعد شهور قليلة ، وصارت الأمور الى أخيه ابراهيم فكان الناس — على قول ابن الأثير وغيره — يسلمون عليه البعض بالخلافة والبعض بالامارة ، وناس لايسلمون عليه بأى منهما ... ولكن مروان الحمار (٣) بن محمد بن مروان أمير الجزيرة وثب عليه بعد شهرين وأنزله من على كرسى الخلافة ، وجلس مكانه خمس سنوات .

لا نعرف حياة عبد الرحمن أثناء تلك الفتنة ، لكنه على أية حال لم يكن له دخل آنذاك بمباشرة الأمور ، وانما كان كغيرة من فتيان أمية يتلقى من علوم القرآن والحديث واللغة وأصول الأدب والشعر الشىء الكثير ، كما لا يبعد أنه كان يقضى سحابة يومه فى رياضة الخيل واللعب بالسيف والصيد والقنص فى نواحى دمشق أو فى الرصافة من أرض قنسرين ، حيث كان يعيش جده الحبيب ولكن ذلك لم يستمر طويلا .

كانت رياسة بنى هشام بعد وفاته قد اجتمعت الى سليمان ابن هشام ، وقد آلت اليه بطبيعة الحال رعاية أولاد أخيه المتوفى ، وكان ذا أطماع واسعة لم يرض عن الوليد بن يزيد ، كما لم يرض عن مروان بن محمد ، فخرج عليه ، ودعا أهل الخلاف من اليمانية وغيرهم ، لكنه انكسر أمام جند مروان ، ودخل أمير الجزيرة دمشق وبايعه الناس وفى جملتهم سليمان ، بيد أنه حين خرج الضحاك ابن قيس الشيبانى بالكوفة وانتشر سلطانه حتى الموصل ونصيبين

---

(١) ولهذا لقبه البعض بالوليد الزنديق لفجوره وعهاره .

(٢) دعى بذلك لأنه أنقص من أعطيات الجند .

(٣) دعى بالحمار لصبره فى النضال ضد الفتنة .

شمالا ، انضم اليه سليمان ، فأرسل مروان ابنه عبد الله الى الخوارج ، ثم لحق به وفتك بالضحاك وأشياعه فى كفر توثا سنة ١٢٨ هـ ، وانهزم سليمان لكنه لم يتخل عن عدائه لمروان .

لشد ما كانت الأحزان وهى تترى الى قلب عبد الرحمن حين يرى ويسمع الخطب الذى ألم ببنى أمية منذ وفاة هشام ، ولكن ترى كيف كان حاله وهو يشهد مصرع أخيه أمية وكان يكبره قليلا فى حوادث ذلك النضال . فقد وقع الفتى فى أسر مروان فقال :ـ « أنشدك الله والرحم ياعم » ولكن الخليفة القاسى الحازم رد عليه : « ما بينى وبينك اليوم من رحم » وأمر به ، وعمه سليمان واخوته ينظرون اليه ، فقطعت يداه وضرب عنقه . . . وطوى عبد الرحمن أحزانه فى صدره وصبر على المأساة فهو لم يكن يستطيع شيئا وهو حدث غرير ، واطمأن الى بعض الراحة حين هدأت الفتنة واستقر الأمر لمروان . . . . لكنه لم يستقر تماما .

كانت رياسة الشيعة قد اجتمعت بعد مصرع الحسين الى أخيه محمد وكانت أمه من سبى بنى حنيفة الذين شايعوا مسيلمة الكذاب . وكان محمد ابن الحنفية حكيما حين رأى أن يبتعد عن مباشرة الأمور وقد تمكن بنو أمية من الخلافة .

وخلفه فى الامامة ولده أبو هاشم الذى أوصى بها قبل أن يموت الى محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، فانصرف محمد هذا الى بث الدعاة سرا ، خصوصا الى خراسان ، وكان للشيعة فيها أنصار وأتباع . وبقيت الدعوة سرية نيفا وعشرين سنة ، ولم يتم الجهر بها الا بعد وفاة هشام ، ووقوع الفتن والثورات ، التى شارك فى احداثها أفراد من البيت الأموى نفسه .

استمال أبو مسلم ــ وكان من رجال خراسان البارزين ــ قومه وجهر بالدعــوة بعد أن كان الدعاة يستخفون فى الزمن الفائت ، واستفحل أمره وزحف الى مرو وهى العاصمة وبها أمير البلاد نصر

ابن سيار الذى لما أحس بدنو الرايات السود أرسل الى مروان هذه الأبيات (١) :

أرى خلل الرمـــاد وميض نار ... ويوشـــك أن يكون لها ضرام
فان النـــار بالعودين تذكى ... وان الحـــرب أولهـــا كلام
أقول من التعجب ليت شعرى ... أيقاظ أميـــة أم نيـــــام
فان كانوا لحينهم نيامـــــا ... فقل قوموا فقد حان القيـــام
فقـــرى عن رحالك ثم قولى ... على الاســـلام والعرب السلام

وكان مروان فى شغل من ذلك يفتن الخوارج ومن شايعهم من أحزاب العرب ، فكتب اليه : « أن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فقال نصر لما قرأ الكتاب : أما صـــاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده » .

لم يمض على ذلك زمن طويل حتى كانت الرايات السود (٢) قد رفعت على مرو ، وزحف المسودة غربا واكتسحوا فى طريقهم فارس ومشارف العراق ، عندئذ تنبه مروان للخطر الوافد وأتاه أعوانه بأن الدعوة لابراهيم الامام بن محمد العباسى فقبض عليه وحبسه فى حران ثم دس اليه من سمه حتى مات ، فارتحل أهـــله وفيهم أبو العباس وأبو جعفر أخواه (٣) الى الكوفة ، والتجأوا الى بيت أبى سلمة الخلال الذى أخفى أمرهم ، حتى اقتحم أبو مسلم الكوفة ودخل على بنى العباس وسلم على أبى العباس بالخلافة .

لم يكد يستقر الأمر للسفاح بالكوفة حتى سير عمه عبد الله ابن على لملاقاة مروان ، وقد قدم بمائة وعشرين ألفا من أهل الشام ، وعلى نهر الزاب الذى يخرج من الدجلة التقى الجمعان ، فتبودلت

---

(١) تروى هذه الأبيات فى كتب الأدب والتاريخ بصور متعددة وما هنا ورد عن الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

(٢) وهى شعار العباسيين .

(٣) لقب الأول السفاح ولقب الاخر المنصور .

الكتب ، ولم يجد خليفة بني أمية من أصحاب الأعلام السود الا عزما وتصميما وارادة وجال عبد الله بفرسه جولة ، ثم نظر الى السماء وخاطب ربه : « يارب حتى متى نقتل فيك » . ونادى: «يا أهل خراسان : يالثارات ابراهيم الأمام ، يا محمد ، يا منصور» وصاح مروان فى أصحابه أن يحملوا فتباطأ من تباطأ وتكاسل من تكاسل ، وأجمع القوم على نفورهم من القتال ، فلم يجد الرجل بدا من أن يخرج الذهب الى الناس عسى أن يفعل المال ما عجز عنه اللسان ، ولكنهم كانوا يأخذون الذهب ولايقاتلون . فأمر مروان ابنه عبد الله بأن يتعقب الفرار من القوم بالقتل ، فمال برايته وأصحابه ولما رأى الناس الراية راجعة صاحوا : « الهزيمة ... الهزيمة » فانهزموا وقطع الجسر فكان من غرق يومها أكثر ممن قتل ، وتفرق الفل فى الأودية يطلبون أمانا لن ينالوه .

كان يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ١٣٢ – يوم الزاب – هو نهاية دولة بنى مروان ، فقد أسرع الخليفة المهزوم يطلب النجاة فى بلاد الشام ، وكان عبد الله بن على فى أعقابه ، حتى أتى دمشق ثم الأردن ، وجاز الى فلسطين ، وهناك تولى صالح بن على أمر مطاردته ، واستمر مروان فى طريقه الى مصر ، حتى اتى الصعيد ولجأ الى قرية على النيل تدعى بوصير ، واطمأن هناك الى أنه ابتعد عن عيون بنى العباس ، ولكن صالحا كان فى أثره ، وفى اخريات ذى الحجة كان راسه قد حمل الى صالح ثم استقر بين راحتى السفاح .

الفصل الثاني

الفتى.. والطريق

في أعقاب الزاب ـ الانتقام من الأمويين ـ مصرع سليمان بن هشام ـ الأمويون يهربون من سيوف العباسيين ـ عبد الرحمن يستخفى عن عيون العباسيين ـ هربه من العراق ـ قدومه الى افريقية ـ تفكيره في الذهاب الى الأندلس .

« .. فخرجت لأنظر ، فاذا بالروع قد نزل بالقرية ونظرت فاذا بالرايات السود منحطة ، وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هاربا » .

عبد الرحمن بن معاوية

كان من المؤلم لشاب فى بسن عبد الرحمن أن يحتمل ما جرى فى تلك الآونة الأخيرة من مآس ، وهو بعد لم يتخط عتبة العشرين . وقد يصعب علينا ونحن بعد اثنى عشر قرنا أن نصف ما كان يموج فى خاطره من أحاسيس متضاربة ، فلقد كان زوال النعمة التى درج عليها أمرا أصعب من أن يحتمله أو أن يقبل السير فى سبيل غير ما عهد .

لا نعرف تماما هل شارك عبد الرحمن فى معركة الزاب التى أدت الى مصرع الدولة الأموية ، فالمراجع التاريخية لا تحدثنا عن دوره فى حلبة الصراع بين بنى أمية وبنى هاشم . ولكن لا يبعد أن يكون لعبد الرحمن ، وهو فتى غض الاهاب جديد الشباب نصيب وافر فى ذلك ، لما سنراه فى المستقبل من شجاعة فاقت كل وصف وجازت كل امكان ، ومن عزم لا ينبو وارادة لا تغيب .

ونحن نعرف ان اخوته وبنى عمومته قد شاركوا فى المعركة ، وكان له أخ يقاربه سنا ، ويدعى يحيى يحكى عنه ابن الأثير انه كان يقاتل يوم الزاب مستقتلا فراعت شجاعته وأبهة الشرف التى تبدو عليه عبد الله بن على وجنوده من المسودة ، وكذا كان حال كثير من بنى مروان .

ضاعت الدولة الأموية ، وتفرق أبناؤها مزقا فى أشـتات الأرض ، وظفر صالح بن على بحرم مروان ، ودخلت عليه بناته . فتكلمت كبراهن : « يا عم أمير المؤمنين .. حفظ الله من أمرك ما تحب حفظه ، نحن بناتك وبنات أخيك وابن عمك ، فليسعنا من عفوك ما وسعكم من جورنا » .

فرد عليها وقد هاجته شجون الماضى : « والله لا أستبقى منكم أحدا ! ألم يقتل أبوك ابن أخى ابراهيم الامام ؟ . ألم يقتل هشام ابن عبد الملك زيد بن على بن الحسين وصلبه بالكوفة ؟ . ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ألم يقتل ابن زياد الدعى مسلم بن عقيل (١) . ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين ابن على وأهل بيته .. ألم يخرج بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقفن موقف السبى .. ألم يحمل رأس الحسين وقد قرع دماغه فما الذى يحملنى اليوم على الابقاء عليكن » .

فقالت ضارعة : فليسعنا عفوكم .

وسكت القائد المظفر قليلا حتى هدأت نفسه ثم قال : « أما هذا فنعم ، وان أحببت زوجتك ابنى الفضل » .

فقلت : « وأى عز خير من هذا بل تلحقنا بحران » (٢) .

---

(١) ابن أخى على بن أبى طالب وقد قتله ابن زياد غدرا ابان ثورة الحسين سنة ٦١ هـ .

(٢) وهى عاصمة الجزيرة وكان مروان حاكمها قبل أن يلى الخـلافة .

فحملهن اليها فلما دخلنها ورأين منازل مروان رفعن أصواتهن بالبكاء .

واذا كان صالح بن على كريما مع بنات مروان فان غيره من بنى العباس لم يكن كذلك ، فهذا أخوه عبد الله – سفاح العصر – قد أمر بنبش قبور بنى أمية ، فنبش قبر معاوية . وتذكر الرواية التاريخية أنه لم يجد به سوى خيط يشبه الهباء ، ونبش قبر يزيد فوجد به حطاما كأنه الرماد ، ونبش قبر عبد الملك فوجد جمجمته ، الا هشاما ، فانه وجد صحيحا لم يبل منه غير أرنبة أنفه ، فضربه عبد الله بالسياط وصلبه وحرقه وذراه فى الريح . . وشرع بنو هاشم يأخذون ثأرهم من بنى عبد شمس .

ولكن قبور بنى أمية لم تكن هى وحدها مطلب بنى هاشم ، فها هو ذا أبو العباس السفاح (١) قد أتاه رأس مروان – وكان بالكوفة يومذاك – فلما رآه سجد ثم رفع رأسه وخاطب رأس مروان وكأنه لا يزال يتنفس : « الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرنى بك ولم يبق ثأرى قبلك وقبل قومك أعداء الدين » وتمثل قائلا :

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دمـــاؤهم للغيظ تروينى

وها هو ذا سليمان بن هشام ، وكان على خصام مع مروان قد أمنه أبو العباس وأتى اليه الآن وهو بمجلسه ، وبينما هو كذلك اذ دخل عليه سديف بن ميمون الشاعر ولم يعجبه ما رأى فأنشأ يخاطب السفاح :

لا يغرنك ما ترى من رجـــال

ان تحت الضـــلوع داء دويا

---

(١) السفاح لقب أطلق على أبى العباس أول الخلفاء العباسيين وهو غير عبدالله بن على الذى أطلق عليه لقب السفاح أيضا لأنه كان كذلك .

فضع السيف وارفع السوط حتى
لا ترى فوق ظهرها أمويا

فانتبه سليمان وقال لسديف : « قتلتنى يا شيخ » ولم يلبث أن لحق سليمان بمروان .. ربما ليواصلا خلافهما فى السموات العاليات .

ونرى عبد الله بن على وعنده جماعة من خيار بنى أمية زادوا على السبعين وهم على الطعام ، ثم دخل عليه شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم وقال :

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل (١) من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وباس
لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة (٢) وغراس
ذلها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحز المواسى
ولقد غاظنى وغاظ سوائى ... قربهم من نمارق وكراسى
انزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والاتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيدا ... وقتيلا بجانب المهراس (٣)
والقتيل الذى بحران أضحى ... ثاويا بين غربة وتناس

وتقول الرواية التاريخية ان عبد الله أمر بهم فضربوا بالعمد حتى قتلوا ، وبسط عليهم الأنطاع ، فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا .

ولم يلبث أن اندفع العباسيون يقتالون من وقع فى أيديهم بأمان أو بغيره ، فسفك عبد الله بن على دماء العشرات منهم بنهر أبى فطرس ، كما أخذ أخوه داود من كان بمكة والمدينة منهم بالقتل ،

(١) المقدمون من القوم .
(٢) شجيرة .
(٣) آلة للتروس .

فراح ضحية هذا الغضب الدامى عصابة بنى أمية وخيارهم ، منهم محمد بن عبد الملك بن مروان ، وسعيد بن عبد الملك بن مروان ، وأبو عبيدة بن الوليد بن عبد الملك ، وعبد الواحد بن سليمان ابن عبد الملك ، والغمر بن يزيد بن عبد الملك ، كما حشر فى زمرتهم ابراهيم المخلوع بن الوليد بن عبد الملك .... وانتهبت قصور بنى مروان ومنازل عزهم ، وبطش العباسيون بكل من مانعهم ، فهذه الأميرة عبدة بنت هشام سألوها عن كنوز وجوهر فلم ترد عليهم فذبحوها ذبح النعاج ، لم يرأعوا عهدا ولا رحما ولا دينا .

وكان نصيب عبد الرحمن من ذلك العهد الأسود الكثير من الأسى ، فقد فقد أخا ثانيا غير أخيه الذى فقده فى الصراع مع مروان ، فان أبان بن معاوية أشجع فتيان أمية قد قطعت يده ورجله ، وطيف به فى كور الشام ، ونادى القتلة المظفرون على راسه : هذا أبان بن معاوية فارس بنى أمية ، واستمروا كذلك والفتى يحتمل العذاب والمهانة المرة تلو الأخرى حتى مات . ولكن الزمان لم يرض الا أن يتتبع أولاد معاوية بن هشام الواحد فالواحد ذلك ان يحيى بن معاوية وكان ساكنا فى قرية صغيرة قرب مكان عسكر فيه صالح بن على ، وكان قد أمن البقية الباقية من بنى أمية فأقبلوا ، وتوجس يحيى الخطر ، فبعث رسولا ينظر ما يكون ، فوافق القوم يقتلون ، فرجع مسرعا الى سيده ، ولكن يحيى لم يتفق له هرب حتى قربت الخيل فغشى وقتل .

ولم يبق أمام بنى أمية بعد أن بان غدر بنى العباس الا أن يطلبوا الهرب حيث أوسعهم الله من أرضه ، وكان عبد الله وعبيد الله أبنا مروان بن محمد رائدى بنى أمية فى ذلك ، فقد لحقا بأرض الحبشة بعد مصرع أبيهما ، فلقيا عناء شديدا من الأحباش وقتل عبيد الله ونجا عبد الله فى عدة ممن معه فبقى الى خلافة المهدى . كما نزع الى المغرب جزى بن عبد العزيز بن مروان ، وعبد الملك بن عمر بن مروان ، وفى أثرهما قدم العاصى وموسى

أبنا الوليـد بن يزيد وحبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليـد ابن عبد الملك ، وغيرهم كثيرون .

ونعود الى عبد الرحمن ، فانه بعـد أن رأى ما رأى وسـمع ما سمع لم يجد الا أن يستخفى عن عيون العباسيين حينا فى قرية صغيرة على الفرات ذات شجر وغياض ، وكان يجلس كثيرا يتفكر فى الأحوال التى طرأت عليه فى الآونة الأخيرة ، وتسرح أمام ناظريه الآمال العظيمة التى تنبأ بها مسلمة بن عبد الملك .. ولكن هدوءه لم يستمر طويلا ، ولندعه يروى لنا الرواية التالية :

« انى لجالس يوما فى تلك القرية فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بى ، وابنى سليمان بكر ولدى يلعب قدامى وهو يومئذ ابن اربع سنين أو نحوها ، اذ دخل الصبى من باب البيت فزعا باكيا ، فأهوى الى حجرى فجعلت أدفعه وهو دهش (١) يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لأنظر فاذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فاذا بالرايات السود منحطة وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هاربا ويقول لى : النجـاة يا أخى فهذه رايات المسـودة . فضربت بيدى على دنانير تناولتها ، ونجوت بنفسى والصبى أخى معى ، وأعلمت أخواتى بمتوجهى ومكان مقتصدى ، وأمرتهن أن يلحقننى ومولاى بدر معهن .. وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية ، فما كان الا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثرا ومضيت ولحقنى بدر ، فأتيت رجلا من معارفى فى شط الفرات ، فأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى ، فدل على عبد سوءله العامل ، فما راعنا الا جلبة الخيـل تحفزنا فاشتددنا فى الهرب فسبقناها الى الفرات فرمينا فيه بأنفسنا والخيل تنادينا من الشط : ارجعا لا بأس عليكما ، فسبحت حاملا نفسى وكنت أحسن السبح ، وسبح الغلام أخى ، فلما قطعنا نصف

---

(١) حائر مضطرب .

الفرات قعد أخي ووهن ، فالتفت اليه لأقوى من قلبه .. واذا هو قد أصغى اليهم وهم يخدعونه عن نفسه ، فناديته : تقتل يا أخي .. الى .. الى . فلم يسمعني ، واذا هو قد اغتر بأمانهم وخشي الغرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات وبعضهم قد هم بالتجرد للسباحة في أثري فاستكفه أصحابه عن ذلك ، فتركوني ثم قدموا الصبي أخي الذي صار اليهم بالأمان ، فضربوا عنقه ونصبوا رأسه ، وأنا أنظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة ، فاحتملت فيه ثكلا ملأني مخافة ، ومضيت الى وجهي أحسب انى طائر وأنا ساع على قدمي ، فلجأت الى غيضة أشبة (١) فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت هاربا أروم المغرب حتى وصلت الى افريقية » .

أشرف عبد الرحمن على الشام حيث بيضة بني أمية ومستقر عصبيتهم وقومهم ، ولكن الزمان قد تغير فبالأمس كان يخرج من هنا أشاوس أهل الشام يرفعون لواء أمية في الأمصار ، ويضربون على أيدي العصاة ، ويوغلون في بلاد الكفار ، ولكننا نرى اليوم عزائم فلت وآمالا ضاعت وقلوبا نكبت ، وقد شمل الجميع الخوف من المسودة .. اذن فليس للفتى مقام في بلاد الشام .. فأين يتوجه ؟ ! وهو بعد لم يسترح من عناء الطريق ، ولا يزال التراب يعلق بجبينه ويضمخ أجزاء من بدنه .

اجتاز عبد الرحمن الشام وفي قلبه حسرة وفي نفسه شجون وقلق ، ولعله قد مر على الرصافة حيث ملعب صباه ومسرح لهوه ، وجاهد في صبر كي يبتعد عن ماضيه الجميل ، ولكنه أفاق حين أشرف على مصر ، ولربما جال بخاطره أن يستقر بها فقد استخفى فيها الكثير من بني مروان وأشياع بني مروان ومواليهم ، ولكنه عدل عن ذلك لما تذكر مأساة مروان بن محمد ومصرعه الأليم .

كانت افريقية حين عبر اليها عبد الرحمن قد اجتمعت الى

---

(١) ذات أشجار كثيرة ملتفة يصعب المرور فيها .

سميه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى سليل عقبة بن نافع فاتح افريقية وبانى القيروان ، وكان حبيب بن أبى عبيدة (١) والد عبد الرحمن قد قتل فى ثورة البربر الكبرى على أيام هشام ابن عبد الملك ، فاجتاز عبد الرحمن الى الأندلس مع الفرار من القوم ، وطمع فى ملكها ، ولكن مساعيه خابت فكر الى افريقية ، وانتهز ما جرى فى الشرق آنذاك من الفتنة بعد وفاة هشام ، فتوجه لقتال حنظلة بن صفوان الكلبى والى افريقية ، وزحف الى القيروان ، وخاف حنظلة وكان ذا ورع ودين لا يرى القتال الا لأهل الكفر والخوارج ، فهجر ولايته الى بلاد الشام ، ودخل عبد الرحمن القيروان فى سنة ١٢٧ ، ولم يجد مروان بن محمد الا أن يعترف بولايته ، ولما بادت دولة بنى أمية بالمشرق أعلن طاعته لبنى العباس ولبس السواد .

لم يجد الأمويون فى افريقية ما كانوا يصبون اليه فى ملجأ يقيهم خيل بنى العباس ، لأن ابن حبيب كان مخلصا لسادة العصر الجديد ، فتتبع الأمويين أينما وجدو ، وكان ابنا الوليد بن يزيد ضحية اخلاصه للعباسيين ، وبينما هو كذلك اذ أعلمه عالم بالحدثان بتغلب القرشى المروانى الذى هو من أبناء ملوك القوم واسمه عبد الرحمن ووصفه له ، وذكر أنه سوف يملك الأندلس ويورثها فى عقبه ، فقال ابن حبيب : ويحك هذا هو وأنا قاتله . وكان هذا الرجل يضمر الولاء لبنى أمية فرد عليه : انك ان قتلته فما هو بهولحقك اثمهأو غلبت على تركه .. انه لهو ، فان القضاء لا يغالب (٢) ، فأعرض الأمير عما اعتزمه حينا ، ولكنه لم يلبث أن رجع الى رأيه الأول ، وجعل جائزة كبيرة لمن يأتى برأس غريمه ورصد له الأرصاد .

---

(١) او ابو عبدة .

(٢) هذه رواية غير محققة علميا اوردناها هنا لشهرتها ولكثرة ترددها فى كتب التاريخ .

قضى عبد الرحمن بافريقية خمس سنوات ، وكان عليه أن يستخفى عن عيون عبد الرحمن بن حبيب ، وكان بدر قد جاءه ومعه نفقة وجوهر من أخته أم الأصبغ ، استعان بها عبد الرحمن في التمكين لنفسه بين البربر ، وقد استطاع ذلك فان أمه كانت أم ولد بربرية تدعى راحا أو رداحا من بربر نفرة أو نفزاوة ، وقد تقلب في قبائلهم فحل بزناتة ومكناسة ، كما ورد مليلة ومغيلة ، واستخفى عند بني رستم ملوك تاهرت ، وطوال ترحاله كانت خيل ابن حبيب تتعقبه ، واستمر الفتى كذلك الى أن استقر في نفزة الذين يسكنون قرب سبتة .

كان عبد الرحمن قد بلغ قاصية بلاد المغرب ، وها هو الآن يفكر فيما جرى له في السنوات الأخيرة ، وأخذ يرسم في مخيلته طريق المستقبل .. ولربما فكر أن يقيم لنفسه دولة بأفريقية ، ولكنه لن يفعل ، فليس ببعيد أن يتجرد له جيش بني العباس من الفسطاط فيفتك بدولته وهي في المهد ، ولربما أيضا يخرج عليه البربر الذين ثاروا ثورة عارمة في العشرينيات من القرن ، كما ان البلاد شاسعة واسعة تمتد آلاف الأميال من مصر حتى بحر الظلمات (١) ، فلن يستطيع أن تكون طاعته عامة .. وها هي جزيرة الأندلس أمامه وللمروانية هناك أنصار وأشياع ، وكانت الجزيرة قد جمعت من الحسن ضروبه ومن الاعتدال فنونه ومن خير الله شيئا كثيرا .. وطرقت الى ذهن عبد الرحمن فكرة .. ان كل ما عليه الآن أن يتعب ، وغدا سوف يحتل مكانه تحت الشمس .

---

(١) بحر الظلمات هو الاسم العربي القديم للمحيط الأطلسي Atlantic ومن التسميات العربية الأخرى البحر المحيط الأكبر والبحر الأخضر والأوقيانوس .

الفصل الثالث

الأندلس .. بين الغسق والفلق

وصف الأندلس ـ لمحة من تاريخها القديم ـ أيام القوط الأخيرة ـ اعتلاء رذريق عرش اسبانيا ـ رذريق يغتصب فلورندة ابنة الكونت يليان ـ يليان يعلن انضمامه الى المسلمين ـ حملة طريف بن ملوك ـ طارق بن زياد يتولى قيادة الفتح ـ معركة وادى لكة سنة ٩٢ هـ ـ المسلمون يستولون على طليطلة ـ موسى بن نصير يلحق بطارق بن زياد ـ اكتمال فتح الأندلس ـ التفكير فى غزو أوربا .

« أيها الناس : أين المفر !!
البحر من ورائكم والعــــدو
أمــــامكم وليس لكم والله
الا الصدق والصبر .. » .

طارق بن زياد

×——————————×

الأندلس بلد حار فى وصفها الأدباء وتغنى بها الشعراء ، فقد جمعت من الحسن والكمال ما صار مضرب الأمثال ، ويقولون فى ذلك انها « شامية فى طيبها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها، هندية فى عطرها وذكائها ، اهوازية فى عظم جبايتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها . ومن أشهر ما ورد عنها من أفانين الشعر وبديع البيان ما نظمه ابن خفاجة :

يا أهـــل أندلس لله دركـم ماء وظل وأنهار واشـــجار
ماجنـــة الخلد الا فى دياركم ولو تخيرت هذى كنت أختار

شبه جزيرة فى الطرف الآخر من بحر الروم ، كانت تدعى فى الزمن القديم « سبان » Span أى البلاد النائية ، وحين هاجر اليها اليونان تركوا هذا الأسم الفينيقى ودعوها « هسبيريا » Hesperia أى البـلاد الغربية ، وعنهم أخذ الرومان اسم « هسبانيا » Hispania . حين فتحهم تلك البلاد زمن هانيبال Hannibal قائد

قرطاجة Carthago الشهير ، ثم عرفت فى العصور الحديثة باسبانيا Espana . ولما غزتها قبائل الفندال Vandali المتوحشة فى أوائل القرن الخامس بعد المسيح أطلقوا على ذلك السهل الواقع الى الجنوب من الجزيرة وهو « باطقة » Baetica اسم فندالوسيا Vandalusia أو فنداليشيا Vandalitia ، الذى صار فيما بعد أندالوسيا Andalusia ، وعرف عند العرب بالأندلس ، ثم عمموا تلك التسمية على شبه الجزيرة بأسرها .

وفى خلال القرن الخامس تعرضت أسبانيا لغزو القوط (١) Gothones الذين كانوا قد فتحوا روما منذ قليل ، وطفقوا يتجولون فى أنحاء غاليا Gallia — فرنسا — زمنا . وتغلب القوط على قبائل البرابرة (٢) التى سبقتهم الى شبه الجزيرة ، كما حالفوا الرومان فى نضالهم ضد الهون Huns وزعيمهم الكبير أتيلا Attila وبلغ القوط أوج مجدهم فى عهد أورك Euric الذى حكم فى أواخر القرن الخامس ، ثم التحموا مع الفرنجة والروم والبشكنس Les Basques ، ورغم أنهم هزموا فى معارك عدة فان شبه الجزيرة أذعنت فى آخر الأمر لطاعتهم . ولربما كان من الجائز أن يستمر حكم القوط سنين عديدة أخرى لولا ان هنالك أمورا أضعفت من سلطانهم فى السنين الأخيرة من تاريخهم الطويل .

كان اليهود قد تفرقوا فى بلدان البحر الأبيض المتوسط بعد هدم هيكلهم فى بيت المقدس ، واستقر عدد منهم فى اسبانيا ، وانصرفوا الى التجارة ، وتمكنوا من الحصول على بعض الامتيازات فى عهد السيطرة الرومانية ، لكن أوضاعهم لم تلبث أن تغيرت حين

---

(١) المقصود هنا القوط الغربيون Visigoths وهم غير القوط الشرقيين Ostrogoths الذين استقروا بايطاليا .

(٢) البرابرة Barbarians تسمية تطلق على قبائل الجرمان على اختلافها وغيرها من شعوب أوربا غير الرومانية .

غزو القوط اسبانيا ، ووقوع الحرب بينهم وبين الروم فى عهد الامبراطور يوستنيانوس ، اذ انضم اليهود الى الروم ابان هذا النضال ، فوقفت الجفوة بينهم وبين القوط ، زاد منها اعلان ركاريد Recared الكاثوليكية مذهبا رسميا للبلاد فى سنة ٥٨٧، فقطع بذلك آخر الروابط التى تربط القوط بالامبراطورية الشرقية .

على أن سلوك اليهود بما فيه من حقد وجشع واستعلاء ، الى جانب ما طبعوا عليه من عزلة وانصراف الى ما فيه تحقيق مصالحهم الشخصية ، فضلا عن كراهتهم لدين السيد المسيح ، كان العامل الأهم فى انقلاب القوط عليهم .

وبدأت سلسلة من الاجراءات اتخذها القوط ضدهم حماية لأمن دولتهم ، اتضحت خلال السنوات الأخيرة من القرن السابع وأوائل القرن الثامن ، وألزموهم بالتنصر والا فالقتل أو النفى . وازاء هذا اتجه اليهود الى تدبير المؤامرات ضد الدولة والثورة عليها بالاتفاق مع اخوانهم فى شمال أفريقية ، مما كان له أثر فى اضعاف سلطة القوط وفى الكيان الاقتصادى للبلاد .

أجمع كتاب الفرنج قديمهم وحديثهم على أن فمبا Wamba هو آخر عظماء الملوك من القوط ، فقد ضرب على الفتنة بيد من حديد ، ولكن المتآمرين اشتد ساعدهم فى الخفاء ، واضطروه الى أن يلتجىء الى الدير فى سنة ٦٨٠ م . واعتلى كرسى المملكة من بعـــده ارفج Erwigius ، ويذكر ابن الأثير أن أيام (ارفج) « كان فى دولته قحط شديد ، حتى كادت بلاد الأندلس تخرب لشـــدة الجوع » . واشار الملك وهو على فراش الموت بأن يخلفه اخيكا Ejica وهو زوج ابنة فمبا ويسميه العرب ربعة أو ابقة وكان ذلك سنة ٦٨٧ ، فأشرك معه فى أواخر حكمه ولده فيتيزا Witiza الذى يعرفه العرب بغيطشة .

كان غيطشة عطوفا على الشعب ، وعلى ذلك فقد كان مكروها

من الكنيسة ، وحين انفرد بالسلطة فى سنة ٧٠١ أصدر عفوا عاما عن المنفيين ، كما أعاد الأملاك المصادرة الى أصحابها ، وخفف من غلواء الضرائب ، وتسامح مع اليهود . وتقول الرواية العربية أن غيطشة « كان حسن السيرة لين العريكة ، وأطلق كل محبوس فى سجن أبيه وأدى الأموال الى أربابها » . وثارت نقمة رجال الكنيسة وفريق من النبلاء ، وبخاصة حين جعل أخاه أوباس Oppas مطرانا اشبيلية Hispalis (Sevilla) مطرانا على طليطلة Toletanum (Toledo) وهى قصبة القوط ، كما سلم ولده أخيلا Achila — وهو وقلة أو رملة عند العرب — ولايتى اربونة Narbonne وطركونة Tarragonne تحت وصاية رخشندش Rechesind وهو أحد النبلاء من أقاربه .

كان رذريق (١) وهو الاسم الصحيح لروديرك Rudericus أو روديرجو Roderigo ابنا لتيودوفريد Theodofred دوق قرطبة Cordova وكان غيطشة قد سمل عينيه ، لهذا فانه كان من ذلك الفريق من النبلاء الذى استمالته الكنيسة ، فثار بعد وفاة غيطشة سنة ٧٠٩ م مستعينا بعصبية أبيه السابقة فى اقليم باطقة ، وأعلنه أتباعه ملكا فى قرطبة أوائل سنة ٧١٠ م ، ثم زحف ليقاتل رخشندش الوصى الذى توج ملكا أيضا وانتصر عليه وقتله، وفر أبناء غيطشة الى افريقية يطلبون المساعدة من الغرب ، وعلى الفور صادر رذريق أملاكهم كما يقضى عرف القوط .

ساعدت أبناء غيطشة فى قضيتهم شخصية لعبت دورا هاما فى أحداث الفتح الاسلامى للأندلس وهى يليان Julianus صاحب سبتة Septem (Ceuta) الذى صمد أمام هجوم العرب المتوالى . وكان يليان هذا نبيلا من نبلاء الروم انتهز فرصة تداعى السلطة المركزية للدولة الرومانية فى افريقية ، واستقل بكورته ، ولم يلبث أن اتجه

---

(١) أو لذريق أو لوذريق أو الادريقون أو اذريقون .

الى القوط يخطب ودهم لما رأى خطورة الهجوم الاسلامى ، وصار تابعا لطليطلة وكان ذلك في زمن أخيكا ، واستمرت تلك التبعية فى عهد غيطشة (١) .. ولكن حين اغتصب أحد النبلاء الحكم من أسرة غيطشة غير يليان موقفه .

تقول الرواية العربية « وكانت عادة ملوك الأندلس أنهم يبعثون أولادهم الذكور والاناث الى مدينة طليطلة ليكونوا فى خدمة الملك ، ولا يخدمه غيرهم يتأدبون بذلك ، فاذا بلغوا الحلم أنكح بعضهم بعضا » . وقد أرسل يليان ابنته فلورندة Florinda وهى صغيرة الى بلاط طليطلة ، وشبت الفتاة عن الطوق جميلة حسناء ، ويبدو أن رذريق لما خلص له الملك ترصدها حتى تمكن منها وهى تستحم في حمام الكهف Bano de la Cueva وافتضها . ولم تجد الفتاة بعد أن فقدها الملك عذريتها وشرفها الا ان تكتب الى أبيها ، فلما وقف يليان على ما حدث لابنته ثارت نفسه وقال : ودين المسيح لأزيلن ملكه ولأحفرن تحت قدميه . وعبر البحر وكان ذلك فى فصل الشتاء ، ووفد على رذريق ، وعجب الملك من قدومه فى ذلك الوقت من السنة ، ولكن يليان زعم أن زوجته مريضة ، وانها تود رؤية ابنتها قبل أن تموت . فسمح له رذريق بذلك وعاد بعد أن طلب منه أن يرسل اليه صقورا يستغلها فى صيده ، فوعده يليان « خيلا وبزاة لم ير مثلها » وهو يقصد بذلك العرب .

بعد أن غادر يليان بلاط طليطلة اتجه الى موسى بن نصير (٢) ، وكان قد تم له فتح بلاد المغرب ، وأخذ يسهل له أمر الأندلس ، وكان موسى يود أن يكون فتح تلك البلاد على يديه بعد أن استبانت

---

(١) يختلفون فى شخصية يليان فهو قوطى أو رومى أو فارسى والبعض انكر وجوده ولكن البحث الحديث يؤكد وجوده وينفى انه قوطى أو فارسى .

(٢) قائد المسلمين الذى أتم فتح بلاد المغرب ، وقد اختلف القدماء فى أصله وفى نسبته الى العرب ، والاغلب أنه صريح فى العروبة من بنى لخم .

له ضرورة ذلك . فكتب الى الوليد بن عبد الملك يطلعه برغبته في فتح الأندلس ، فجاءه كتابه « خضها بالسرايا حتى تختبر ، ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال » ، فرد عليه موسى « انه ليس ببحر ، وانما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر » ، ولكن الوليد أجابه « وان كان فاختبره بالسرايا » .

وجه موسى مولاه طريف بن ملوك (١) وهو من البربر الى الأندلس فى رمضان سنة ٩١ هـ وهو يوافق يوليو سنة ٧١٠ م ، وكان معه مائة فارس وأربعمائة راجل فى أربع سفن ، فنزل أول ما نزل بجزيرة صغيرة تدعى بالوماس Palomas قرب الموضع الذى ستقوم عليه فيما بعد البلدة التى تدعى بجـــزيرة طريف Tarifa ، وهنالك اتصل ببعض أصحاب يليان وأبناء غيطشة ، وأصاب بعض المغنم ثم عاد .

جهز موسى مولاه طارق بن زياد (٢) وهو من البربر أيضا فى سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم من البربر وأقلهم من العرب ، فعبروا المجاز عند سبتة فى بعض سفن المسلمين وقيل بل سفن يليان ، ونزلوا الجبل المواجه وكان يسمى كلبه Calpe فدعـــاه المسلمون بجبل طارق Gibraltar وذلك فى رجب سنة ٩٢ هـ أبريل سنة ٧١١ م . واتجه طارق بمجرد نزوله الى أن يحرق سفنه ليقطع على جنـــده الأمل فى الارتداد والعودة ، ثم انصرف الى الاشـــتباك مع بعض أتباع تدمير Theodomir صاحب الجزيرة الخضراء Algeciras أمثال بنج Bencius وهو ابن أخت رذريق ــ واديكو Edeco وانتظر المـــدد من موسى ، فحمل اليه خمســة آلاف فتحرك شمالا .

---

(١) أو طريف بن مالك وفى رواية ضعيفة انه من العرب .

(٢) مولى موسى بن نصير وهو على أرجح الروايات من بربرة نفزة الذين يسكنون قرب سبتة .

لم تكن المقاومة القوطية قد اتضحت بعد ، وكان تدمير قد لقى عناء شديدا من العرب ، فكتب الى رذريق ــ وكان يتعقب البشكنس ــ فى الشمال : « قد وقع بأرضنا قوم لا ندرى أمن السماء نزلوا أم من الأرض نبعوا » . فرفع الملك الحصار عن بنبلونة Pampeluna ، وارتد سريعا الى الجنوب ، وكان ذلك ليومين بقيا من رمضان سنة ٩٢ هـ الموافق ٢٦ أو ٢٩ يوليو سنة ٧١١ م حين التقى طارق برذريق على موضع من أحواز شذونة Medina Sidonia عـــرف بوادى لكة Guadalete وبه أسمى النهر القريب ، وكان جيش القوط يزيد على السبعين ألفا على حين كان المسلمون لا يزيدون على اثنى عشر ألفا . وفى وسط هذا الموقف الذى امتلأ حماسة وتوقدا وقف طارق وقال فى خطبة طويلة ، « أيها الناس أين المفر ؟؟ البحر من ورائكم !! .. والعدو أمامكم ! وليس لكم والله الا الصدق والصبر » ...

كان القتال شديدا استمر سبعة أيام ، جد فى خلالها أمر خطير ، ذلك ان نفرا من نبلاء القوط وأبناء ملوكهم وكانوا على خلاف مع رذريق جال بخاطرهم « ان المسلمين اذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا الى بلادهم ، وبقى الملك لنا » . فكاتبوا طارقا بشرط ان يرد اليهم ضياعهم التى اغتصبها رذريق ، فوعدهم بذلك ، فانفلتوا الى المسلمين ، ووقف فريق آخر موقف المتردد ينتظر النتيجة التى كانت فى صالح المسلمين .

ولما تبدت الهزيمة لرذريق أسرع الى جواده الأشهب أورليو Orelio فامتطاه ، وغادر ساحة القتال سريعا . ويقال ان طارقا اتبعه فتمكن منه واحتز رأسه ، ويقال أيضا انه غرق فى النهر ، ولكن الرواية الصحيحة انه لم يقتل أو يغرق ، وانما ارتد شمالا مع بعض اتباعه ، وصمد أمام هجمات العرب المتكررة حتى لقى حتفه فى سبتمبر سنة ٧١٣ فى ولاية سلمنقة Salamanca وبعد ذلك بزمن طويل عثر فى لشـــدانية Lusitania بمقبرة احدى

الكنائس الكبرى على شاهد قبر مكتوب عليه « هنا يرقد رذريق ملك القوط » Hic requiescit Rudericus rex gothorum .

أسرعت فلول القوط وقد هزتها وطأة الهزيمة شمالا الى استجة Eciga ، وجد طارق فى أثرها . وتقول القصة ان قائد الحامية التجأ الى النهر ليقضى حاجة ، فظفر به طارق وهو لا يعرفه ، فلما كاشفه بأنه أمير المدينة صالحه على الجزية وخلى سبيله . ولما استقر له الأمر باستجة أشار عليه يليان قائلا « قد فرغت بالأندلس ، وهؤلاء أدلاء من اصحابى ، فرق معهم جيوشك ، وخذ أنت الى طليطلة » . ففرق طارق جيوشه من استجة ، فسار جيش الى قرطبة وآخر الى مالقة Malaga والثالث الى غرناطة Grenada وسار هو ومعظم الناس يريد طليطلة .

عــــبر طارق الوادى الكبير Guadaliquivir فى طريقـــه الى حاضرة القوط ، وكانت المدينة قد تركها أهلها الى مدينة صغيرة خلف الجبل ، فضم طارق اليهود الى طليطلة وسلك وادى الحجارة Guadalaia ، ووصل الى مدينة تدعى المائدة Almeida حيث ظفر هناك فيما يقال بمائدة سليمان بن داود ، وهى مائدة مجلس طليطلة الدينى Conseil ou Synode de Toledo التى فر بها أهلها الى ذلك المكان البعيد بين الجبال حتى لا تقع فى أيدى العرب ، ثم عــاد الى طليطلة وانتظر أوبة بقية الجيوش .

سار مغيث الرومى فى سبعمائة من المسلمين الى قرطبة ، وباغتها بالليل من ثغرة فى سورها واســـتولى عليها ، واعتصم أميرها مع أصحابه فى كنيسة غربى المدينة ، فحاصرهم المســلمون ثم أخذوهم على غرة وقتلوهم ، وفر الأمير فقتل أثناء فراره ، وضم المسلمون اليهود الى المدينة . أما جيش مالقـــة فقد كان يصحبه دليل من أتباع يليان ، ففتحها المسلمون كما سقطت فى أيديهم جميع أعمـــال رية Rejo ، ولجأ علوجها الى الجبال .

ولما كان هذا الجيش قد أدى مهمته سريعا فقد لحق بالجيش المتوجه الى البيرة Elvira وغرناطة ، فافتتحها المسلمون عنوة وضموا اليهود الى قصبة غرناطة .

توافت الجيوش الى طليطلة ، واستعد طارق للتوغل فى البلاد ، ويقال أنه بلغ استرقة Astorga ونواحى جليقية Galaecia واشتوريش Astoria ، ولكن ذلك لم يحدث فان موسى بن نصير قد أشفق على الفتوح من تهور طارق وتوغله فى دروب البلاد التى يجهلها ، فلم يجد القائد العام الا أن يرسل كتابه الى مولاه قبل ان يبارح طليطلة يأمره بالتوقف حتى يجىء .

استخلف موسى على القيروان ولده عبد الله ، وخرج الى الأندلس ، فدخلها فى رمضان سنة ٩٣ ومعه ثمانية عشر ألفا من العرب والبربر ، وسار الى شذونة ثم قرمونة Carmona ، وواجه هناك مقاومة شديدة من أهلها ، فاضطر الى محاصرتها مدة شهر ، ثم دخلها بحيلة اذ أوهم يليان أهل المدينة أنه واصحابه من فلول القوط التى فرت من وجه العرب ، ففتحوا له ولجنده الأبواب ، وفى اعقابهم دخل العرب . ثم اتجه موسى الى اشبيلية ، وكانت الحامية القوطية قد انسحبت الى لبلة على مصب وادى أنة Guadiana ، كما هرب نفر من أهلها الى باجة Beja ، ودخل موسى المدينة وأنزل بها نفرا من اليهود .

سار موسى من اشبيلية الى ماردة Merida فحاصرها ، وخرج اليه أهلها ، وقاتلوه قتالا شديدا ، فأكمن لهم المسلمون وهزموهم ، فكروا الى المدينة ، فحاصرهم المسلمون شهورا ، ثم فكر موسى فى حيلة فصنع المسلمون دبابة احتمى بها نفر منهم ونقبوا سور البلد ، وتقاتل الفريقان ، فانكشف الاعداء . وكان الفتح يوم الفطر العاشر من يوليو سنة ٧١٣ ، وظفر المسلمون بالشىء الكثير ، ووقعت امرأة رذريق فى أيديهم فأنكحها موسى ولده عبد العزيز ،

وصالح أهل المدينة على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين ، وأموال الهاربين الى جليقية ، للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليها لها ، واستقر المسلمون بالمدينة فترة يستريحون من عناء الحرب .

ولكن موسى لم يلبث ان سمع بانتقاض اشبيلية ، واجتمع اليها أهل باجة ولبلة الذين كانوا هاربين ، وقتلوا ثمانين من رجال الحامية الاسلامية ، فسير موسى اليها ولده عبد العزيز ، ففتحها من جديد وانتقم للمسلمين من أهلها . ثم سار موسى من ماردة في شوال سنة ٩٤ يريد طليطلة ، فأسرع اليه طارق قبل أن يصل الى المدينة في وجوه الناس ، واجتمع اليه عند موضع من كورة طلبيرة Talavera على مبعدة مائة وخمسين ميلا من طليطلة .

زحف موسى وطارق الى سرقسطة Saragossa ، ففزع أهلها وأزمعوا الفرار ، ولكن موسى أرسل اليهم رسولا أبلغهم الأمان ، ودخل المسلمون المدينة دون مقاومة تذكر . ثم اخترق ولاية نبره Navarre (الثغر الأعلى) وطركونة . وبرشلونة Barcelona وأتاه كتاب الوليد بن عبد الملك بأن يرجع ، فلم يأبه به ، ثم افترق عنه طارق فسار غربا الى جليقية وكنتبرية Cantabria وهاجم البشكنس واستولى على أمايا Amaya واسترقة وليون Leon أما موسى فاتجه شمالا ، واخترق جبال البرتات Pyrenees وغزا لانجدوك Languedoc وسبتمانيا Septemania وقرقشونة Carcassone وأربونة حتى وصل الى وادى الرذانة ــ الرون ــ ولوذون ــ ليون Lyon ــ وغزا الفرنج وجرت المعارك الأولى بينهم وبين المسلمين عند أسوار أربونة .

يقول ابن خلدون « وجمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية ، ويتجاوز الى الشام دروب الأندلس ، ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانية ، مجاهدا مستلحما الى أن يلحق بدار الخلافة » . والواقع أن موسى وهو القائد الحريص لم يكن

ليقوم بتلك المغامرة الجريئة التى تعد غريبة حتى على شباب الأمة فى شبابها ، والأغلب انه قال ذلك فى ثورة حماسة مؤقتة لا لغرض دائم أو مستقر . وعلى أية حال فانه قد اكتفى بذلك وارتد خلف البرتات ، وسار جنوبا بغرب متعقبا فلول القوط المذعورة التى لجأت الى الكهوف والمغاور من جبال كنتبرية وجليقية وحط رحاله عند لك Lugo بالقــــرب من أبيط Oviedo وهـــــرب السكان المجاورون الى مكان بعيــــد ، هو صخرة أوربة Picos de Europa ، وسار هو بنفسه حتى بلغ ثغر جيجون Gijon ، وكان يتأهب لاستئصال البقية الباقية من جنود القوط ، لولا ان جاءه رسول آخر للوليد ، فأمسك بعنان جواده وحوله نحو القبلة ، فغادر موسى الأندلس وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ٩٥ هـ .

الفصل الرابع

الجزيرة العاصية

القوط يجمعون فلولهم ـ مصرع عبد العزيز بن موسى سنة ٩٧ هـ ـ السمح ابن مالك والي الأندلس يستولي على اربونة ـ عنبسة بن سحيم يتوغل في فرنسا ـ عبد الرحمن الغافقي ومعركة بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ ـ عقبة بن الحجاج وبداية الفتنة ـ بلاى يجمع شعث القوط في اشتوريش ـ البربر يثورون على العرب سنة ١٢٢ هـ ـ معركة وادي سليط وبداية امر الشاميين ـ تجدد الفتنة بين القيسية واليمنية ـ الصميل بن حاتم يتزعم القيسيين ـ تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري ومعركة شقندة سنة ١٣٠ هـ ـ الثورة في سرقسطة سنة ١٣٦ هـ .

« اغثنا بوال يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين ، حتى يصير الشام والبلدان على دعوة واحدة ، فقد أفنانا القتل وخفنا العدو على ذرارينا » .

×——————×

كانت الجزيرة لما أشرف العرب على البرتات الشامخة قد أذعنت لسيوفهم ، ولم تخرج عن طاعتهم سوى مرسية Mursia وأقاليمها في الشرق وجليقية النصرانية فى قاصية الشمال الى الغرب . وكان عبد العزيز بن موسى وهو الذى آلت اليه ناصية الأمور بعد رحيل أبيه الى حاضرة الخلافة قد اتجه الى مرسيه ، وحاصرها حتى اضطر أميرها وهو تدمير — الذى أسميت باسمه الكورة — أن يصالح المسلمين على مدائنه السبع والأمان على النفس والمال والدين ، وعلى أن يؤدى الجزية ، فانصرف المسلمون عنه (١) .

لم يستمر الحال بعبد العزيز طويلا ، ذلك ان أصحابه اتهموه بأنه اتخذ أبهة الملك بتحريض من زوجته سليلة الملوك ، فوثبوا عليه

---

(١) استولى المسلمون على مرسية فى عهد أبى الخطار الكلبى سنة ١٢٥ هـ كما سيأتى بعد .

واغتالوه وهو يؤدي صـــلاته بمسجد رينة Rufina في اشبيلية وهي اذ ذاك قصبة الأندلس ، غير انه لا يبعد أن تكون لسليمان ابن عبد الملك (١) ـ وكان حانقا على موسى بن نصير ـ يد في ذلك ، اذ أنه لم يلبث أن عزل عبـــد الله بن موسى عن افريقية ، وتتبع آل موسى بن نصير في الآفاق .

استقرت ولاية الأندلس بعد مصرع عبد العزيز سنة ٩٧ هـ في يدي ابن عمته وهو أيوب بن حبيب اللخمي ، وفي عهده انتقلت حاضرة الامارة الى قرطبة ، ولكن حكمه لم يستمر سوى شهور ، لأن محمد بن يزيد القرشي عامل افريقية (٢) استخلف على الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، فقدم البلاد في ذي الحجة ، وتسنم السلطة ثلاث سنوات ، فغزا الفرنجة ، وما أن عاد الى قرطبة حتى أتاه كتاب عمر بن عبد العزيز (٣) .

كان السمح بن مالك الخولاني ـ وهو الوالي الجديد ـ أحسن ولاة الأندلس ، وأكثرهم تقوى ودينا ، فقد نظم أمور الجزيرة وخمس الأراضي وأعاد بناء قنطرة قرطبة الرومانية ، ثم زحف شمالا واخترق شواهق البرتات واستولى على أربونة ـ ناربون ـ وهي قاعدة سبتمانيا ، كما اجتاح قرقشونة Carcassone واتجه الى اقطانية Aquitania فاستولى على طرسونة Tarascon وأحدق بطلوشة Tolosa عاصمة الولاية . ولكن جيشه انكسر على يدي أوديس Eudes دوق اقطانيـــة ، وأصيب السمح بجراحات مات

---

(١) ابن عبد الملك بن مروان وأخو الوليد بن عبد الملك تولى الخـــلافة ثلاث سنوات ٩٦ ـ ٩٩ وكان منشأ العداء بينه وبين موسى حول الأســـلاب التي أتى بها من الاندلس .

(٢) كانت ولاية الاندلس تتبع في الغالب ولاية افريقية .

(٣) أحسن الخلفاء الأمويين وأورعهم تولى الخـــلافة بعد سليمان بن عبد الملك ٩٩ ـ ١٠١ .

من جرائها فى يوم عرفة سنة ١٠٢ هـ (يونيو سنة ٧٢١) ، ولم تتبق له من ذكرى فى غاله غير زقاق باسمه فى أربونة يعرف بزقاق السمح Rue de Zama .

ارتدت الجيوش العربية ارتدادا موفقا ، وذلك بفضل قائد عظيم سوف يبرز فى الميدان فيما بعد وهو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، فتولى أمور الأندلس باتفاق الجماعة حتى قدوم عنبسة ابن سحيم الكلبى من قبل بشر بن صفوان الكلبى عامل أفريقية فى صفر سنة ١٠٣ ، فأصلح الأمور وغزا قرقشونة وصالح أهلها على نصف أعمالها وعلى جميع من بالمدينة من أسرى المسلمين ، وعلى أن يؤدوا الجزية ويلتزموا بأحكام أهل الذمة من محاربة من حارب ومسالمة من سالم ، ثم زحف على نيمة Nimes وارتدت القوط الى محالفة العرب ، وتابع سيره شمالا حتى وادى الرذانة ، وتقدم فى برغونية Bourgogne واستولى على مدينة أوتون Auton وغزا صانص Sens وما وراءها ، وامتد سلطان المسلمين سريعا فى جنوبى فرنسا ... ولم يلبث أن قتل عنبسة فى حوادث ذلك النضال فى شعبان سنة ١٠٧ (ديسمبر سنة ٧٢٥) .

وكان الثأر لمصرع عنبسة من نصيب عذرة بن عبد الله الفهرى الذى اقتحم سبتمانيا ، وتوغل فى بلاد الرذانة وغزا الالبيين Albegeois وأقليم رويرج Rouergue وجيفودان Gevaudan وليلفيه Levelay . وتلاه الهيثم بن عبيد الكنانى أو الكلابى ، فعبر البرتات وغزا لوذون Lyon وماسون Macon وشالون Chalons واستولى على أوتون ثم ارتد جنوبا .

تتابع ولاة الأندلس بعد مصرع عنبسة ستة ولاة فى مدى خمس سنوات ، هم عذرة بن عبد الله الفهرى ويحيى بن سلامة الكلبى أو العاملى وحذيفة بن الأحوص القيسى من أقبل بشر بن صفوان الكلبى ، ثم عثمان بن أبى نسعة الخثعمى والهيثم بن عبيد الكنانى

ومحمد بن عبد الله الأشجعي من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي على أن أظهر خلفاء عنبسة كان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي تولى الامارة سنة ١١٢ هـ .

كان عبد الرحمن رجلا على قدر كبير من التقوى والدين والرغبة في الجهاد ، يقول كونده Conde « وعندما تولى عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي مهام منصبه كأمير على أسبانيا قام بجولة في ولاياته من أجل اعادة كل شيء الى النظام وازالة الظلم الذي أجراه الهيثم ، واستمع الى شكاوى الناس باهتمام ولطف وأناة وأعلن العدالة بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، وعزل هؤلاء الذين كانوا يظلمون الناس ، وأحل مكانهم رجالا معروفين بالنزاهة والاستقامة عارفين بواجباتهم ازاء الجميع ، وأعاد الى المسيحيين كنائسهم التي كانت قد أخذت منهم في الماضي وخلافا لما اتفق عليه في المعاهدات » .

واذا كان عبد الرحمن أميراً عظيما ومسلما عدلا ، فان بعض صغار النفوس من ولاة الشمال لم يكونوا كذلك ، اذ أن واحدا منهم تسميه المصادر النصرانية مونوزا (١) Munuza عقد محالفة مع أمير اقطانية المسيحي وتزوج ابنته . فزحف اليه عبد الرحمن وقتله ، وانتصر على حليفه الدوق وانتهب عاصمة طلوشة ، واقتحم مدينة تور Tours الشهيرة ، وبدا كأن فرنسا قد أذعنت للمسلمين .

ولكن قارلة Carolus زعيم الفرنجة التقى بعبد الرحمن في ذلك السهل الفسيح الممتد بين تور وبواتييه Poitiers في أخريات شعبان سنة ١١٤ هـ (أكتوبر سنة ٧٣٢ م) . وفي ذلك المكان الذي عرفه العرب ببلاط الشهداء تقاتل الفريقان اقتتالا

---

(١) لا تعرف شخصيته على وجه دقيق عند المسلمين ، وان وجدت بعض الترجيحات لحسين مؤنس .

شديدا ، وبدا أن المسلمين قد أحرزوا تفوقا كبيرا ، لولا ان ثلة من فرسان العدو نفذت الى خلف الصفوف حيث أودع المسلمون غنائمهم ، وانزعج البربر وهم أكثرية في معسكرهم ، وهبوا لانقاذ الغنائم ، وانفتحت ثغرة تدفقت منها جموع الفرنج ، واستمر القتال وخر أمير المسلمين صريعا ، وأنهال الفرنجة يحصدون المسلمين ، غير انهم وقد أفاقوا من هول الخديعة صبروا حتى أقبل الليل وفي هدوء تام انسلوا تحت جنح الظلام ، ولما أصبح الصباح وجد الفرنجة معسكر العرب خاليا منهم .

صارت الأمور في الأندلس بعد مصرع عبد الرحمن الى عبد الملك بن قطن الفهري ، وكان ظلوما جائرا في حكومته ، ولكنه لم يغفل أمر الجهاد فغزا البشكنس سنة ١١٥ هـ ، وهاجم نواحي أرغونة Aragon ونبرة وعبر البرتات وحصن معاقل المسلمين في غالة . وعاد صفار حكام سبتمانيا الى محالفة المسلمين ضد أوديس ، وكان أظهرهم مورونت Mauronte دوق مرسيلية Massilia ، واتحد مع والي أربونة الذي يعرفه الفرنجة بجوزيف Jussef ، وهو يوسف ، فعبر هذا الأخير الرذانة واستولى على آرلة Arles وأبنيون Avignon ، وتجنب قارلة لقاء العرب بعد أن ذاق مرارة الحرب معهم ، فلما اطمأن ابن قطن الى الجبهة الفرنجية اتجه الى امارات البرت فأوقع بها ثم عاد .

اتجهت نية هشام بن عبد الملك الى أن يجعل عبيد الله ابن الحجاب مولى بني سلول — وكان عامله على خراج مصر — على أفريقية ، فما كاد يستقر بالقيروان حتى أرسل عقبة بن الحجاج السلولي واليا على الأندلس في شوال ١١٦ هـ ، وكان ثالث ولاة الأندلس العظام بعد السمح بن مالك الخولاني وعبد الرحمن الغافقي ، وقد اختار الأندلس لأنه يريد الجهاد وهي على قوله « موضع جهاد » فأغار على دوفين Dauphine ، واستولى على فلانس Valance ولوذون ووغل في برغونية وحصن أربونة ، فلما

حاصرها قارلة بعد عودة عقبة الى قرطبة ألفاها صعبة المنال فرجع عنها مدحوراً .

ويرتبط عهد عقبة بميلاد مملكة اشتوريش النصرانية ؛ فان بلاى بن فافلة (١) Fafila - Pelayo جمع فل القوط واستولى على أشتوريش وجليقية وكنتبرية ، ولما توجه عقبة لقتال الفرنج بسبتمانية انصرف اليه ورده الى الصخرة ، كما أدخل الكثيرين من أهل جليقية فى الاسلام ، وكادت تنهار دولة الجلالقة . ولكن الرواية النصرانية تذكر أن عقبة أرسل حملة أخرى بقيادة علقمة (أو القماح) Alchaman والى أشتوريش وانه انهزم ، وفتكت به قناصة العدو فى مغارة أونجا Cova-d'onga وعادت سيطرة بلاى على البلاد . ولقد بالغ مؤرخو الفرنج فى أهمية هذه المعركة التى تعتبر أسطورة تستند فى الأصل إلى حقيقة واحدة ، وهى انحسار المد العربى عن تلك البلاد النائية البعيدة بعد أن أدرك العرب صعوبة اجتيازها ، ولربما أراد عقبة متابعة الغزاة ، لولا انه مات أو عزل على يدى الأمير السابق عبد الملك بن قطن .

كان عبيد الله بن الحبحاب قد استعمل على طنجة Tingis ولده أسماعيل فجعل معه عمر بن عبد الله المرادى ، فأساء السيرة وأراد أن يبقى الجزية على من أسلم من البربر كعهد الحجاج ابن يوسف فى بلاد العراق ، فثار البربر ثورتهم الكبرى فى سنة ١٢٢ هـ وقتلوا المرادى ، وبايعوا واحداً منهم بالخلافة وبامارة المؤمنين ، وفتكوا بجيش العرب الذى أتى من القيروان ، كما فتكوا بجيش آخر قدم من الشام فى سنة ١٢٣ بقيادة كلثوم ابن عياض القشيرى ، ولجأت بعض فلول العرب الى افريقية والبعض الآخر الى سبتة .

---

(١) أو بلايوس Pelaius أو بلاجيوس Pelagius وهو الأصل فى ملوك قشتالة Castille الذين طردوا العرب من الأندلس فى النهاية .

كان بلج بن بشر القشيرى ، وهو ابن أخى كلثوم بن عياض مع الناجين الى سبتة ، وكانوا فى حال سيئة من الجوع والعرى ، فأرسل بلج الى ابن قطن يلتمس مراكب للعبور الى الأندلس ، فامتنع الرجل أول الأمر ، وخاف ان قدموا غلبوه على أمره . ولكن حدث فى ذلك الحين أن اقتدى بربر الأندلس ببربر العدوة ، وثاروا بالعرب ، وأخرجوهم من جهات الشمال ، فلم يجد أمير الأندلس الا أن يسمح لهؤلاء الشاميين بالعبور ، فساعدوه ضد البربر ، وانتصر العرب عليهم فى وادى سليط Guazalete وعاد الشاميون الى قرطبة وقد تحسنت أحوالهم وصاروا فى منعة ، واختلفوا مع ابن قطن ، وانتهى الأمر بالحرب بين أهل الشام (١) بزعامة بلج ضد أهل البلد (٢) والمدينة (٣) بزعامة ابن قطن .. وانتصر الشاميون وقتل ابن قطن وصلب وهو شيخ كبير فى أوائل ذى القعدة سنة ١٢٣ هـ (سبتمبر سنة ٧٤١) .

لم يقدر لبلج أن يستمر به الحال طويلا فى ولاية الأندلس ، اذ ثار قطن وأمية ابنا عبد الملك بن قطن ، وأيدهما عبد الرحمن ابن علقمة اللخمى والى أربونة وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وفى أقوة برطورة Aqua Portera بالقرب من قرطبة انتصر أهل الشام ، غير أن بلج أصيب ومات بعد أيام من النصر فى شوال سنة ١٢٤ ،وصارت رئاسة جند الشام وولاية الأندلس من بعده الى ثعلبة بن سلامة العاملى . ولكن أهل البلد والبربر لم يطيعوا الوالى الجديد ، فسار اليهم وأعمل السيف فيهم ، وأخذ يبيع نساءهم وأولادهم على المسارة من قرطبة ، حتى ضج الناس فكتبوا

---

(١) وهم عتاد الدولة الأموية وكثرتهم من اليمانية .

(٢) أو العرب البلديون وهم جيل الفتح وأولادهم ومن شايعهم من البربر والاسبان .

(٣) أهل الحجاز الذين يحملون الضغينة لأهل الشام منذ يوم الحرة ومصرع عبدالله بن الزبير وأغلبهم بالأندلس قيسية وفهرية .

الى حنظلة بن صفوان الكلبى (١) عامل افريقية ، وكان قد قمع ثورة البربر منـــذ قليل « أغثنـــــا بوال يجمعنا ويأخـــذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين ، حتى يصير الشام والبلدان على دعوة واحدة ، فقد أفنانا القتل وخفنا العدو علي ذرارينا » .

أقبل أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى والى الأندلس الجديد في رجب سنة ١٢٥ (مايو ٧٤٣) والقوم ما زالوا فى فتنة ، فلما اظهر لهم عهده سكتوا عن الحرب ، فدعى عسكره بعسكر العافية ، وكان فى أول عهده عدلا بين الجميع ، فأمن ثعلبة كما أمن ابنى عبد الملك ابن قطن ، وأنهى الاستقلال الذى كانت تتمتع به تدمير منذ عهد عبد العـــزيز بن موسى بن نصير ، وفرق أهل الشام على الكور ، وكانت معه الطالعة الثانية منهم ، فأنزل أهل دمشق البيرة وهى غرناطة وأهل حمص اشبيلية وأهل قنسرين جيان وأهل الأردن ريه وأهـــل فلسطين شـــذونة وهى شريش Xerxes وأهـــل مصر (٢) اكشونية Ossonoba وتدمير وباجة .

ولكن أبا الخطار لم يستطع أن يتغلب على تعصبه لقومه وقبيله ، فاختلف مع الصميل بن حاتم ، وكان رجلا سمحا كريما كثير العطاء ، وهو حفيد شمر بن ذى الجوشن الضبابى أحد قتلة الحسين بن على رضى الله عنه ، فلما فتك به المختار بن أبى عبيد الثقفى ، مع جماعة التوابين (٣) ، ارتحل أهله وبنوه الى بلاد الشام ، وحين جهز هشام الجيش الذى أرســـله لقمع ثورة البربر مع كلثوم بن عياض كان

(١) من أحسن ولاة المغرب وهو أخو بشر بن صفوان وينتمى الى اليمن .

(٢) كان عرب مصر معدودين فى ذلك الحين ضمن جند الشام .

(٣) التوابون هم جماعة المختار بن أبى عبيد الثقفى الذين انتقموا لمصرع الحسين بن على فقتلوا قتلته وانضموا الى حزب محمد بن الحنفية ثم حزب عبدالله بن الزبير ولكن المختار كان يسعى لصالحه الخاص فانتهى الأمر بمقتله على يدى مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ .

الصميل فى جند قنسرين ، كما كان من الفل الذى ورد سبتة مع بلج ابن بشر ، ثم ارتفع شأنه حتى صارت اليه رياسة قيس (١) .

أساء أبو الخطار الى الصميل ، فضرب قفاه حتى مالت عمامته ، فلما قيل له : نرى عمامتك مالت . قال : ان كان لى قوم فسيقيمونها . واتصل الرجل ببعض الحانقين على أبى الخطار من اليمانية وأهل الشام وعلى رأسهم ثوابة بن سلامة الجذامى ، وكان أبو الخطار قد استعمله على اشبيلية ثم عزله عنها ، فوعده الصميل بالامارة اذا عاونه على اخراج أبى الخطار . وفى رجب سنة ١٢٧ (ابريل سنة ٧٤٥) انتصر الحليفان بشذونة ، وأسر أبو الخطار وتولى ثوابة ، وجاءه عهد عبد الرحمن بن حبيب الفهرى والى أفريقية .

ولكن نفرا من اليمانية المشايعين لأبى الخطار كسروا عليه السجن وأخرجوه ، وعاد النضال من جديد بين اليمانية والمضرية ، وانتصرت مضر ، وفر أبو الخطار الى باجة ، واستقر الأمر لثوابة ، الا أن أجله وافاه فى المحرم سنة ١٢٩ هـ . وعاد الاختلاف بين قيس واليمن ، وأقاموا بلا وال أربعة شهور ، وان جعلوا للقضاء عبد الرحمن بن كثير اللخمى . وعندما رأى الصميل ان هذه الحال لن تؤدى الا الى خراب الأندلس أشار بأن يكون الوالى من قريش ، وكان لها فى ذلك العصر مقام كبير بين قبائل العرب ، واقترح أن يكون الأمر لواحد من سادتها هو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى قدر له أن يختم عصر الولاة بالأندلس .

كان يوسف من الأسرة ذاتها التى أنجبت عقبة بن نافع الفهرى فاتح أفريقية ، وتكاد تجمع كتب التاريخ على نسبته اليه فهو يوسف ابن عبد الرحمن بن أبى عبيدة (أبى عبدة) بن عقبة بن نافع

---

(١) فى هذا الكتاب القيسية والمضرية والعدنانية سواء وكذلك الكلبية واليمانية أو اليمنية والقحطانية .

الفهرى (١) ، أى انه ابن عم أمير افريقية التى أضحت بيديه أمورها منذ سنة ١٢٧ . وكثير من المؤرخين يذكرون أيضا انه جوزيف الذى دوخ الفرنجة فى بلاد الغال ، وهذا ليس ببعيد اذ كان يوسف افضل ولاة الأندلس بعد عقبة بن الحجاج ، وقد اجتمعت اليه الكثير من صفات القيادة والريادة التى كانت لجده العظيم .

كانت بلاد الأندلس قد اضطربت الى حد كبير قبيل صعود يوسف الى كرسى الامارة فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ هـ ، فأظهر رغم أنه كان فى السابعة والخمسين اذ ذاك همة عالية لا تدانيها همم الكثير من الشباب ، فعزل الحكام العابثين وقمع المظالم والفوضى وأصلح الطرق العسكرية ، وعدل نظام الضرائب على نحو يرضى الأهلين وبخاصة من النصارى ، وأعاد تنظيم الأقاليم الى خمس ولايات كما كانت أيام القوط ، وهى باطقة وطليطلة وماردة وسرقسطة واربونة .. غير انه بينما كان كذلك اذ جاءته الأخبار بخروج اليمانية .

والتقى الفريقان بشقندة Secunda سنة ١٣٠ هـ (٧٤٧ م) « وتقاتلا بالرماح حتى تقطعت وبالسيوف حتى تكسرت ثم تجاذبا بالشعور » ، وانجلت المعركة عن انكسار اليمانية ومصرع أبى الخطار . واستقام الأمر ليوسف ، وصار الصميل وزيره وصاحب دولته ، يقرب منه من يشاء ويبعد عنه من يشاء . واتجه يوسف بعد ذلك الى الثوار باشبيلية فأقمعهم ، كما دس الى عبد الرحمن بن علقمة من اغتاله وحمل رأسه اليه ، وأراد أن يكسر شوكة اليمانية بسرقسطة وكانوا كثرة أهلها ، فرماهم بالصميل وهو القيس القح وحتى لا ينافسه فى سلطانه بقرطبة .

---

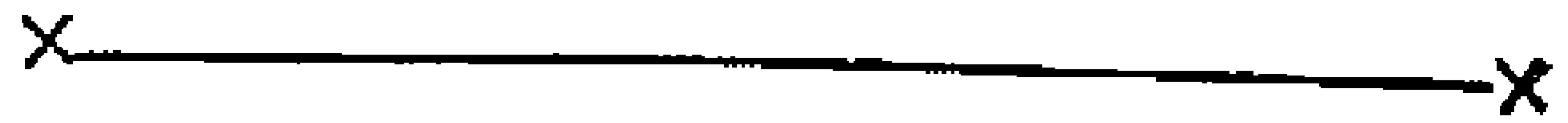
(١) فى بعض الكتب انه يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى وما جاء بالمتن يتفق مع ابن الآبار فى كتابه « الحلة السيراء » وروايته هى أرجح الروايات .

غير انه حدث فى سنة ١٣٦ هـ أن ثار بسرقسطة عامر بن عمرو ابن وهب من بنى عبد الدار بن قصى ، وأيده الحباب بن رواحة من بنى زهرة بن كلاب (١) ، واتخذا السواد وأعلنا الطاعة لبنى العباس ، فأرسل الصميل اليهما بعثة ففتكا بها وانضم اليهما أهل الخلاف واحكما الحصار على سرقسطة ، وكتب الصميل الى يوسف فى المدد ، ولكنه أبطأ عليه رجاء اهلاكه . فكتب الى قومه من قيس ليمنعوه ، فقام فى ذلك عبيد بن على الكلابى فى قيس وربيعة ، وانضم اليه أنصار بنى أمية ومواليهم . فلما سمع العبدرى والزهرى بالمدد الواصل ، انكشفا عن المدينة ، وخرج الصميل الى قومه فتلقاهم بالترحاب ، وأجزل عطاءهم ثم عاد معهم الى قرطبة واعتزم يوسف الخروج الى الثغر فى ذى الحجة سنة ١٣٧ هـ ، اذ أن العبدرى والزهرى انتهزا فرصة خلو الثغر من الصميل وعادا فتملكاه ، وطلب يوسف معونة موالى الأمويين التى سبق أن قدموها للصميل ، وفرق فيهم ألف دينار ، فوعدوه أن يلحقوه بطليطلة .. ولكنهم لم يفوا بما وعدوا .

---

(١) أى انهما من قريش .

الفصل الخامس



الداخل

هموم عبد الرحمن ـ بدر يعود من الأندلس ـ اتصالاته بزعماء الحزب الأموي ـ أبو عثمان وابن خالد يطلبان العون من الصميل ـ الأمويون ييأسون من الصميل ويستميلون اليمانية ـ عبد الرحمن يدخل الأندلس ـ المراسلات بينه وبين يوسف الفهري ـ توالي الحشود ـ معركة المسارة سنة ١٣٨ هـ ـ الصلح بين عبد الرحمن ويوسف الفهري .

« اليوم يوم عرفة وغـدا الأضحى والجمعـة وأموى مع فهرى ، أرجو انها أخت يوم مرج راهط » .

عبد الرحمن بن معاوية

x————————————x

كان عبد الرحمن مذ وجه مولاه بدرا الى الأندلس يعيش فى جو تحيط به الأسرار والغيوم ، وتسرى فيه سحابات من القلق والألم ومن الحزن والأسى ومن التأهب والنكوص .. وهكذا كان حاله الذى قضاه سنتين مرتا عليه مر الدهور . وكان لا يجد من يشكو اليه آلامه ، ويستمد منه القوة التى تعينه على مواجهـة الصعاب ، ذلك أن الجميع الذين شملهم عز بنى أمية ومجد بنى أمية قد قلبوا ظهر المجن لأبنائها وأصحاب تراثها وثراتها حين بدأوا يطالبون بتراثهم وثرأتهم .

وكان بدر قد انقطعت أخباره منذ غادر سـيده ومولاه الى سهوب الجزيرة الواسعة ، فحسب عبد الرحمن أنه خانه أو غدر به ، أو أنه يئس من أمر الدعوة وآثر السلامة والركون الى الراحة بعد عناء السنين . وكاد اليأس يتسرب الى قلبه هو الآخر ، وكانت خيل عبد الرحمن بن حبيب لا تزال تطلبه وتتبع أخباره وتسأل

القاصي والداني عنه ، حتى انه اضطر يوما أن يتخفى تحت ثياب امرأة أحد شيوخ نفزة كي لا يقع في أيدي أعدائه . كما كان عبد الرحمن يحس بأن أخواله قد بدأوا يضيقون بهذا الضيف الوافد بعد أن طال أمد ضيافته ووفادته .

وذات يوم كان عبد الرحمن قاعدا على سيف البحر من مغيلة ، وقد أدى صلاته والوقت وقت غروب ، ومعه نفر يسير من أهله ومن ظلوا على ولائهم له من أصحابه .. كان يتأمل كيف كانت آماله وماذا صارت اليه ، وحول عينيه الى السماء وقد التقت بلجج البحر في الأفق البعيد ، حيث تكمن وراءه أرض الجزيرة ومحط آماله .. وفجأة لاح مركب عند نهاية مرمى البصر .

لم يبد عبد الرحمن كبير اهتمام بالمركب القادم ، فقد مرت أمامه بهذا الشاطىء مراكب كثيرة ، ولكن من كانوا معه شاهدوا رجلا يجري على سور المركب ، ثم يرمي بنفسه الى اليم ، ولم يلبث قليلا حتى صعد الى سطح الماء وبعد ضربتين أو ثلاث من ساعديه وصل الى الشاطىء قبل أن تلقى السفينة بمراسيها ، ورأى الناس وجها ظل غريبا عنهم سنين .. وكان بدرا .

لا يستطيع كاتب أو روائي أو مؤرخ مهما أسعفته قريحته وصفا ذهنه أن يصور كيف كان اللقاء بين عبد الرحمن ومولاه الأمين ، فقد مضت أشهر على فراقه اياه ، وقد كان فتانا في شوق ليتشوف أخباره ، ويتعرف ماذا آلت اليه الدعوة ، وحال الناس في الأندلس ، وهل كانت أرض الجزيرة كما وصفها وغرد بحسنها الشعراء ودبج الأدباء !!! وافاق عبد الرحمن بعد ساعات نسي خلالها نفسه ، وعاشت روحه في واد بعيد . وقدم بدر لسيده أصحابه وكانوا أحد عشر من اليمانية ومعهم واحد سأله عبد الرحمن ما اسمه فأجاب « تمام » وسأله ما كنيته فأجاب « أبو غالب » فصاح وقد تهلل وجهه « الله أكبر !! الآن تم أمرنا وغلبنا بحول الله وقوته » .

كان بدر عندما قدم الأندلس قد اتجه الى موالى المروانية ، وقد اجتمعت رياستهم الى اثنين من أشرافهم وسراتهم ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد من موالى عثمان بن عفان ، وكانا يتواليان لواء بنى أمية ، كما كانت اليهما رئاسة جند الشام النازلين بكورة البيرة . ولم يجد بدر عناء كبيرا فى ضمهما الى الدعوة ، وكذلك كان حال أبى الحجاج يوسف ابن بخت ، وهو فارسى وكان من رجالهم وأنجادهم بجند قنسرين . ولم تلبث أن انتشرت الدعوة بين سائر الموالى المروانية ، وانتظروا عصبا أو قبيلا يقوم بأمرهم .

وكانت لموالى بنى أمية حظوة كبيرة عند يوسف والصميل ، وصاروا فى جملة المدد الذى أعان الصميل ضد ثوار سرقسطة ، وفى الطريق الى قرطبة أعطاه عبيد الله بن عثمان كتابا ، وأعلمه أن « لا سخط الا برأيك فان ترضى أمرا رضيناه ، وان تسخطه سخطناه » . وتناول الصميل الكتاب وتأمله مليا ثم قال : « دعونى أروى وأنظر » عندئذ جمعه الأمويون مع بدر ، فكلمه فى أمور لم تذكرها كتب التاريخ ، وكان الصميل مترددا ، وظل على حاله الى أن دخل وهم قصبة الامارة .

لما اتجهت نية يوسف للخروج الى الثغر ، وعده الأمويون اللحاق به فى طليطلة ، ثم ودعوه وانصرفوا الى توديع الصميل ، وكان قد خرج عن تردده ، ودخل معهم فى الأمر ، فوعدهم أن يقرع صلعة يوسف بسيفه اذا خالفه ، فقبلوا يديه وشكروه وانصرفوا عنه . وفى الطريق لحق بهم الصميل على فرسه الأشهب « الكوكب » واذا به قد غير رأيه فجأة ، وقال لأبى عثمان وابن خالد ان صاحبهما من قوم « لو بال أحدهم فى هذه الجزيرة لغرقنا نحن وأنتم فى بوله .. وأنا أعلمكما ان أول سيف يسل عليه فسيفى » .

قال أبو عثمان : ثم انصرف عنا فانقطع رجاؤنا عن مضر وربيعة بأسرها ورجع رأينا الى أطباء اليمن وادخالهم فى رأينا ، ففعلنا من

فورنا لم نمر بيماني وثقنا به الا عرضنا عليه أمر ابن معاوية ودعونا اليه ، فألفينا قوما قد وغرت صدورهم ، يتمنون شيئا يجدون سبيلا الى طلب ثأرهم ، ورغبوا فى عقد بنى أمية بالأندلس .. » .

وكان عبد الرحمن قد جعل الى بدر خاتمه ليكتب الى من أمل فى دخوله طاعته ، فاجتمع الرجل مع أبى الصباح بن يحيى اليحصبى شيخ اليمانية بغربى الأندلس ، وأخذ يذكره بأيادى هشام ابن عبد الملك ، وما زال به حتى أجاب ، وأيده حسان بن مالك الكلبى ، ووافقه رؤساء الشاميين بشذونة وهم غياث بن علقمة اللخمى وأبو علافة وزياد بن عمرو الجذاميان ، كما أجابه القحطانيون بالبيرة وجيان ، وتبعهم ميسرة وقحطبة رئيسا طىء .. ولما اكتمل عقد الأنصار قالوا لبدر : « امض فيه » فمضى الى عبد الرحمن .

انتظر يوسف الأمويين بطليطلة ، فلما طال انتظاره سار الى سرقسطة ، وأذاق المدينة ويلات من الحصار ، حتى اضطر أهلها الى مصالحته ، على أن يسلموا اليه عامرا وولده والحباب الزهرى ، فاستنزلهم على الأمان ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه – وأراد قتلهم . ولما عارضه رؤساء قيس أرسل نفرا منهم لحرب البشكنس ، وعليهم سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن العقيليان ، ثم انفرد يوسف حتى بلغ وادى شرنبة ، فأدركه الرسول بهزيمة ابن شهاب وقتله وهلاك عامة الناس وان فلهم قد ورد سرقسطة عند ولده أبى زيد عبد الرحمن الذى خلفه على الثغر .

وكانت تلك هى فرصة يوسف فأمر بعامر وولده والحباب ، فضربت أعناقهم وتقول الرواية انه لما فرغ أمر بالطعام مد أمامه سماط كبير ، وجلس اليه وقد ارتاح باله واطمأنت سريرته ، فقال له الصميل : « قد قتل ابن شهاب وقتلت عامرا والزهرى ، هى والله لك ولولدك الى الدجال .. من هذا ينازعك !! » ثم غادره بعد أن فرغ من طعامه ، واضطجع يوسف ، وسرح فى أودية من الأحلام

العذاب .. وبينما هو كذلك اذ صاح صائح : « رســـول من قرطبة » .

اتخذ عبد الرحمن أهبة الرحيل الى بلاد الجزيرة ، وأقبل عليه البربر فتعرضوا دونه ، ففرق فيهم ما كان معه من مال عـــلى أقدارهم ، وأعانه تمام فلم يمنعوه ، ولما صار بالمركب أقبل عات منهم لم يكن قد أخذ شيئا فتعلق بالحبل يريد الصعود الى عبد الرحمن وربما أراد أذيته ، فدفعه واحد من أصحابه وضرب يده بالسيف فقطعها ، وسقط الرجل فى الماء ، ويبدو أن البربر قد ساءهم ذلك ونقموا على عبد الرحمن وودوا لو فتكوا به .. ولكن هيهات .

رست السفينة بعد أن أعانتها الريح بســـاحل البيرة فى ثغر المنكب Almunecar فى أحدى أمســـيات ربيع الآخر ســـنة ١٣٨ (سبتمبر سنة ٧٥٥) وأقبل أبو عثمان وعبد الله بن خالد يستقبلان ســـيدهما ، وأنـــزله الأول فى داره بقـــرية طـــرش Torrox التى أضحت القيادة العـــامة لجيش عبد الرحمن ، وأتاه يوسف ابن بخت وجدار بن عمرو المذحجى من أهل رية وعاصم بن سلامة الثقفى وأبو عبـــده حسان بن مالك وأبو بكر بن الطفيل واختلف الناس اليه .

وتغلب عبد الرحمن على خليفته يوسف بالبيرة ، وأتى الخبر الى الأمير ، فاستشار الصميل فقال : « خطب جليل والرأى أن نقطع اليه من فورنا هذا بمن معنا من الناس ، فاما قتلناه واما شردناه ، فيهرب فان هرب لم يستقلها أبدا » ولكن يوسف كان متـــرددا فلم يأخذ برأى الصميل ، وقال له نفر آخر من أصحابه ان « الرجل لم يظهر طلب سلطانك ، وانما جاء يطلب معاشا وأمنا ، فان عرضت عليه المصاهرة وأن توسع عليه ألفيته مسرعا » . فعدل يوسف عن رأيه واتخذ أهبته للمسير الى قرطبة .

اتجهت نية يوسف الى مراسلة عبد الرحمن فى أمر الصلح

فأرسل اليه وفدا من عبيد بن على الكلابى وهو سيد من سادات قيس وخالد بن زيد وهو اسبانى الأصل وكان كاتب يوسف ومولاه عيسى بن عبد الرحمن الأموى الملقب بتارك الفرس وكان على أرزاق الجند . وبعث معهم بكساء وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار ، وكتب الى خصمه يذكره باصطناع آبائه لجد يوسف عقبة ابن نافع ولأهله ، ويدعوه الى العهد والتوسعة عليه . . ولكن السفارة لم تنجح ، ولم يك بد من الاشتباك المسلح .

أقبل الشتاء وحملت الأنهار وصعب أمر الحرب ، وأخذ قبائل العرب من اليمانية وناس من البربر يفدون اليه ، فأجابته اليمن وقضاعة بأسرها ، ومن أهل الأردن خيارهم ، وأتاه نفر من قيس وهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحصين ابن الدجن العقيلى ، وانضم اليه من ثقيف تمام بن علقمة الثقفى وعاصم العريان وأخوه عمران .

وسار عبد الرحمن الى رية فبايعه عاملها عيسى بن مساور ، ثم الى شذونة فبايعه عاملها غياث بن علقمة ، ثم الى مورور فبايعه عاملها ابراهيم بن شجرة البرنسى ، واستمر حتى أتى اشبيلية حيث جند حمص فدخل فى طاعته أبو الصباح بن يحيى اليحصبى رئيس اليمانية بغربى الأندلس ، كما أطاعه حيوة بن ملامس الحضرمى (١) من سادات اليمن ، وتثايل الناس اليه وفى قرية قلنبيرة من طشانة Tocina بكورة اشبيلية عقد قواده ، ولما اكتمل عدده سار يريد قرطبة .

بدأ النضال فى أوائل ذى الحجة ــ مايو ــ فى موضع لا يبعد كثيرا عن طشانة وكان الوادى الكبير وهو نهر قرطبة حاجزا بينهما ، فتناوشا أياما ، ثم ضاق أصحاب عبد الرحمن من فوات الوقت والقتال لم يبدأ بعد . ورأى فتى أمية أن يأخذ قرطبة وقد تركها

---

(١) ينطق هذا الاسم حياة بن ملامس وهو حضرمى أو مذحجى .

يوسف ، فأوقد نيرانه ليلا ، وسار فى جوف الظلام وبينه وبينها خمسة وسبعون ميلا ، فلم يتحرك الا قليلا حتى أتى خبره الى يوسف ، فأصبحا كفرسى رهان والنهر بينهما .. ولما رأى عبد الرحمن عدم الجدوى أمسك عما انتواه ، وانتظر نقصان النهر وعسكر ببابش وأمامه يوسف بالمسارة (١) .

كان يوم الخميس ٩ ذى الحجة ــ ١٣ مايو سنة ٧٥٦ ــ هو يوم الوقوف بعرفة وفى الغد يضحى الناس أضحياتهم ، وتراسل الخصمان فى الصلح ، وأظهر عبد الرحمن قبوله فابتهج عسكر يوسف وذبحوا ذبائحهم . ولكن عبد الرحمن كان يبيت نية مغايرة ، فخاطب جنده وقال : « انا لم نجىء للمقام ،وقد دعانا هذا الرجل الى ما علمتم وعرض ما سمعتم ورأيى لرأيكم تبع ، فان كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فاعلمونى ، وان يكن فيكم جنوح الى السلم والصلح فاعلمونى » . فأجمعت اليمن بأسرها على الحرب ، وكتب عبد الرحمن الكتائب وجند الأجناد ، وجعل على خيل أهل الشام عبد الرحمن بن نعيم الكلبى ، وعلى رجالة اليمن بلوهة اللخمى من أهل فلسطين ، وعلى رجالة بنى أمية ومن جاءهم من البربر عاصما العريان ، وعلى خيل بنى أمية حبيب ابن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك ، وعلى الخيل وخيل من صحبه من البربر ابراهيم بن شجرة البرنسى ، وناول أبا عثمان لواءه وانتظر حتى يسفر الصباح .

كان ليل ذلك اليوم ثقيل الوطأة على نفس عبد الرحمن ، فالغد سوف يتقرر مصير ست سنوات من العناء والشقاء ، وسرح الشاب الصغير الذى لم يتعد عمره الخامسة والعشرين بعد فى وديان بعيدة تجاوز بكثير ذلك المعسكر الذى بانت نيرانه على الجانب الآخر من النهر .. وما أشبه اليوم بيوم مرج راهط ، فقبل نيف وسبعين

---

(١) أو الصارة أو المصارة وما بالمتن هو الاسم الأصح .

عاما كان جده مروان قد خرج مع قبائل كلب الى قتال الضحاك ابن قيس الفهرى ليعيد دولة بنى أمية بعد أن تداعت عليها عوامل الزمان بوفاة يزيد بن معاوية ، وكان عبد الله بن الزبير فى عصابة من أهل المدينة وشباب الحجاز قد استطاع أن يجعل دولة بنى أمية لا تتعدى حدود دمشق وبلاد الأردن . ولكن مروان انتصر وخر الضحاك ومعه – كما يروى – سبعون ألفا من قيس .. وسأل عبد الرحمن عن اليوم فقيل له انه يوم عرفة ، فقال كالحالم : « اليوم يوم عرفة ، وغدا الأضحى والجمعة ، وأموى مع فهرى .. أرجو انها أخت يوم مرج راهط » (١) .

كان القتال شديدا فى الصباح ، وكانت قيس مع قبائل مضر قد اجتمعت الى يوسف بفضل رئيسها وسيدها الصميل بن حاتم فرتب جيشه وجعل على خيل الشام ومضر كلها عبيد بن على الكلابى وعلى الرجالة كنانة بن كنانة وجوشن بن الصميل بن حاتم وعبد الله بن يوسف الفهرى وعلى خيل غلمانه وصنائعه من البربر خالدا سودى أما اليمن وهم أصحاب عبد الرحمن فكانوا يتحرقون شوقا للثأر ليوم شقنده الذى انكسروا فيه كسرة شنيعة .

ونظر بعض اليمانية الى بعضهم يتأملون هذا الفتى الجرىء الذى راض بلاد الأندلس ، فوجدوه يقاتل قتال الشجعان الأشاوس، ولكنهم قالوا : « غلام حدث فما يؤمننا أن يطير على هذه الفرس فنهلك » . وكان عبد الرحمن فى شغل عنهم بالحرب وبالطعان والضرب ، ولكن واحدا من مواليه الأوفياء أخبره بمقالة القوم ؛ فنادى أبا الصباح وهو رئيسهم وقال له : « ليس فى عسكرنا بغل أوفق من بغلك ، وأن هذا الفرس يقلق تحتى فلا أقدر على ما أريد من الرمى من قوسى ، فخذ فرسى وهات بغلك ، وانى أحب أن تكون تحتى دابة تعرف أن حال الناس » (٢) ، وكان بغلا أشهب

---

(١) يروى هذا الحديث بصورة مختلفة بعض الشىء فى كتب أخرى .

(٢) كذا فى « اخبار مجموعة » .

قد أبيض . وانصرف عبد الرحمن ونسى نفسه فى المعمعة ، وأفاق بعد ساعات وكانت الشمس قد ارتفعت وحمى وهيجها ، ولم يشعر الفتى الا وبدر الأمين وخلاصة أهله ومواليه قد أتوه بالنصر .

دخل الداخل قرطبة فى يومه ، وكان أصحابه فى حال شديدة من التعب والاعياء فنزلوا على مطابخ يوسف يأكلون ، وبعد أن امتلأت بطونهم انصرفوا الى النهب والغنيمة وتجرأوا على حرم يوسف وأهل بيته وعياله . وخاطبت ابنة يوسف قاهر أبيها : يا ابن عمنا أحسن كما أحسن الله اليك . فأمر عبد الرحمن واسترد ما نهبه النـاس وأعاده الى أهله ، وأعجبت الفتاة بفتى أمية الشاب ، وأهدت اليه واحدة من جواريها اسمها حلل . ثم دخل عبد الرحمن الجامع فصلى بالناس ، ووعدهم فى خطبته بالخير والعمل الصالح ، فسكن الجميع واطمأنوا اليه .

لحق يوسف بماردة ثم طليطلة ، ولحق الصميل بشوذر من كورة جيان ، ثم اجتمعا فى البيرة ، واستخلف عبد الرحمن أبا عثمان على قرطبة وخرج متوجها للقاء القوم ، فانتهز أبو زيد عبد الرحمن ابن يوسف الفرصة ودخل قرطبة وقبض على أبى عثمان ووقعت فى يديه بعض جرم عبد الرحمن ، فعاد اليها أميرها مسرعا وقواها ثم ارتد لحرب يوسف .

كان الحصار الذى ضربه عبد الرحمن على يوسف والصميل بالبيرة شديد الوطأة ، فتراسلا واياه فى الصلح ، وكتب الكتاب فى صفر سنة ١٣٩ هـ ، على أن يصير عبد الرحمن ومحمد ابنا يوسف الفهرى رهينتين بقرطبة حتى تهدأ الأمور ، وأقبل الأمير ويوسف عن يمينه والصميل عن يساره حتى دخل مدينته ، ونزل يوسف بمنزله وهو بلاط الحـــر (١) شرقى قرطبة ، ونزل الصميل داره بالربض من نواحيها .. وصفا الملك لعبد الرحمن ، وكان عليه الآن أن يستريح من عناء السنين .

---

(١) الحر بن عبد الرحمن الثقفى والى الأندلس ٩٧ : ١٠٠ هـ .

الفصل السادس

شروق أمية

عبد الرحمن يستقر بقرطبة ــ الأمويون يهرعون الى أمير الأندلس ــ سارة القوطية تأتى الى عبد الرحمن ــ يوسف الفهرى ينقض العهد ــ مصرع يوسف والصميل ــ الجلالقة يهادنون عبد الرحمن ــ سقوط أربونة ونهاية ملك المسلمين وراء البرانس ــ ثورة اليمانية بزعامة عبد الغافر اليحصبى ــ حيوة بن ملامس ــ عودة الفهريين الى الثورة بزعامة هشام بن عذرة ــ العلاء ابن مغيث يرفع الرايات السود ويعلن الطاعة للعباسيين ــ عبد الرحمن ينتصر فى قرمونة سنة ١٤٦ هـ .

« عرضناه المسكين للقتل..
الحمد لله الذى جعل بيننـــا
وبين هذا من عدونا بحرا !! »

أبو جعفر المنصور

استقر عبد الرحمن بدار الامـــارة ذلك القصر العتيق الذى يرجع الى عهد القوط ، وانصرف أول الأمر يدعو الى بنى العباس وأبى جعفر المنصور (١) ، وكان عام ١٤٠ هـ عاما هادئا فى حياة عبد الرحمن بعد سنى الشقاء التى مر بها منذ قضى جده هشام . وفى تلك الأثناء كان الأمير قد رزقه الله طفلا جميلا من جاريته الحسناء حلل التى أسبغت عليه وعلى وليدها من حنـــانها الشىء الكثير واشتد فرح عبد الرحمن وسروره فأسماه هشاما تيمنا باسم جده العظيم .

وكان سرور عبد الرحمن لا يقدر حين وفد عليه فى ذلك الحين اهــل بيته من بنى أمية ومن بينهم عبد الملك بن عمر بن مروان « قعدد بنى أمية » (٢) ، وكان عبد الرحمن يجله ويجعله فى مقام الوالد ، كما دخل عليه جزى بن عبد العزيز بن مروان وكان رجلا

---

(١) سوف يرد السبب الذى من اجله دعا عبد الرحمن للعباسيين بعد .
(٢) أى أقرب الفروع الى الأصل .

خيرا فاضلا قد سلك مسلك أخيه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، ودخل عليه فى زمان سابق حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد ابن عبد الملك ، وكان قريبا الى قلب عبد الرحمن وبكاه بكاء مرا حين توفاه الله . . . ودخل عليه من الأموية وبنى مروان آخرون وآخرون .

وأجزل عبد الرحمن جائزة من ناصروه فى أيام محنته ومنحوه عطفهم وحنانهم وقت أن امتنع عنه عطف الناس وحنانهم ، ولن نتحدث عن بدر فان الرجل كان هو القائم بأمر دولة عبد الرحمن ، وكان حاله هو حال بنى برمك فى بلاد المشرق . ولم يتخذ الأمير وزيرا ، وانما جعل صاحبيه وهما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد فى مقام المشاورة والموازرة ، كما كانا أول كتابه ، وولى حجابته تمام بن علقمة فظل حاجبه الى أن مات .

وعادت بعبد الرحمن ذاكرته الى أيام الطفولة السعيدة حين دخلت عليه ذات يوم سارة القوطية التى لقيها منذ سنين بعيدة وهو صغير ناعم فى قصر جده هشام ، وكانت سارة قد مات عنها زوجها وقت قدوم فتى أمية الى بلاد الأندلس ، فتنافسها اثنان من أصدقاء عبد الرحمن هما حيوة بن ملامس الحضرمى وعمير بن سعيد اللخمى ، فسعى ثعلبة بن عبيد الجذامى عند الأمير حتى قدم عميرا على حيوة ، وكان الرجل نعم الزوج لابنة الملوك ، وكان أولادهما من أشراف العرب وسادتهم فى بلاد الجزيرة (١) وكان من عادة سارة انها تاتى الى قصر الامارة كلما حلت بقرطبة ، وكان الأمير ينزلها على الرحب الواسع والكرم الزائد . . . ولطالما كانت سارة تقضى ساعات طويلة مع ولد عبد الرحمن وهى تداعبهم وتناغيهم ، وكأنهم بعض ولدها قد خرجوا من جسد آخر .

---

(١) من أحفاد سارة النابهين أبو بكر بن القوطية المؤرخ صاحب كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » وهو من المصادر الهامة التى رجعنا أليها فى الترجمة لصقر قريش .

كانت بلاد الجزيرة حين وطئتها قدما الداخل تموج بالفتن التى قامت بين العرب والبربر وبين القيسية واليمنية وبين أهل البلد واهل الشام وكانت المجاعة قد أكلتها أيام ولاية يوسف الفهرى ، وانتشر الوباء وأصبح القاصي والدانى لا يأمن على روحه أو عرضه أو ماله ، فان طموح الرؤساء والزعماء من عدنان وقحطان كان لا يأبه لصالح المجموع . وكان الفرنجة فى الشمال قد اشتد ساعدهم ، وتكالبوا على اربونة ذلك الثغر الاسلامى العزيز الذى ظل يناوئهم عشرات من السنين ، وكانت فلول القوط بقاصية جليقية قد استطاعت ان تقيم دولة امتدت الى الجنوب ، وهددت معاقل المسلمين فى بلاد الابرة (Ebro) والدويرة (Duero) ، وكاد يضيع ما انشاه موسى وطارق من فتوحات .

لما تداعى الحصار الذى فرضه قارلة على أربونة عاد مورونت دوق مرسيلية وكان هاربا الى مسرح الأحداث « وعقد الخناصر مع العرب » واتى قارلة من بلاد الشمال ودخل مرسيلية سنة ٧٤٩ م معلنا انتهاء حكم مورونت ، وبذلك زال حليف العرب فى بلاد الرذانة ، ولكن قارلة لم يجرؤ على محاربتهم بعد أن اكتوى بنارهم يوم البلاط ، واكتفى بذلك وكر راجعا الى بلاده . ولما استتب الأمر ليوسف فى بلاد الأندلس ارسل ولده عبد الرحمن الى أربونة ، لكن نصارى البشكنس فى جبال البرتات كسروا هذا الجيش وذلك سنة ٧٤٧ م ، ثم انشغل يوسف بأمر عامر العبدرى والحباب الزهرى ثم دخول الداخل ، فانتهز بيبين (Pippin) وهو خليفة قارلة وولده الفرصة ، وكان البابا قد منحه تاج الفرنجة فقوى أمره ، وتوجه الى حصار أربونة وكان ذلك سنة ١٣٣هـ (٧٥٢) ، وواجه الملك مقاومة شديدة من حامية المدينة التى صبرت على الحصار بفضل حماسة أميرها الشجاع عبد الرحمن ابن علقمة اللخمى « فارس الأندلس » ، ولما رأى بيبين عدم جدوى الحصار ارتد الى بلاده ، بعد أن ترك مكانه حليفا قويا من أمير

القـوط هـــو انسيموند Ansemundus) ، ولكن العـــرب أكمنوا له ، .وخر انسيموند صريعا وانكسر الحصار .

وكان من الممكن أن يتشجع العرب بعد امتناع أربونة عن الفرنج ، كما لم يكن ببعيد أن يعيد العرب سابق نشاطهم فى اقطانية ، ولكن حروب العصبيات انهكت قواهم ، وبخاصة لما غلبت اليمانية ، ورجع فارس الأندلس الى الشمال يجرر أذيال الخيبة ، ثم عاجله اعوان يوسف بالقتل ، وفى ذلك الحين كان بيبين قد أعاد حصاره لأربونة ، وهب عبد الرحمن لانقاذ المدينة فسير اليها قائدا تسميه المصادر النصرانية سليمان وكان ذلك فى سنة ١٤٠ هـ (٧٥٨ م) ولكـــن عصـــابات البرتات (Pyrenees) فتكت بالجيش وقائده فى ثنايا الجبال وأوعارها (١) ، ولربما جهز عبد الرحمن حملة جديدة أو خرج بنفسه الى هذا الثغر النائى درع الأندلس فى « الأرض الكبيرة » (أوروبا) ولربما خرج أيضا الى عصاة الجلالقة ليردهم الى الطاعة ... لولا انه وصل الى سمعه خبر مشئوم .

كان يوسف قد دخل فى ركاب الأمير وافدا كريما ، لم تهن له حرية ولم يؤخذ من ماله ولم تدس له كرامة ، فقد ناضل نضال الشجعان ، غير ان أيام الدهر ليست كلها سواء . وكان عبد الرحمن قد جعله فى بلاط الحر وهو قصره المنيف بشرقى قرطبة وكأن حاله لم تتغير . .ولكن يوسف وقد صار شيخا كبيرا لم يذهب عنه ذلك الطموح الذى أباد من الأندلس أخضره ويابسه ، وكانت بقرطبة بيوتات من بنى هاشم وبعض قبائل قريش وبنى فهر لم تجد من عبد الرحمن ما كانت تطمع أن تجد منه وقد أعاد أميرها والصميل الى قرب ما كانا عليه فى الماضى بمنازل العز والسيادة... ولعبت الدسائس دورها ، حتى لم يجد يوسف فى ذلك العام الذى

---

(١) ربما كان سليمان هذا هو سليمان بن شهاب الذى وجهه يوسف فى حملة فاشلة هلكت على أيدى البشكنس قبل دخول عبد الرحمن بقليل .

كانت تناضل فيه أربونة خيل الفرنج الا أن يرفع راية العصيان(١).

واستغرب يوسف من الصميل ذلك الموقف الذى اتخذه ، فالرجل والمؤرخون يشهدون لم ينكث عهداً ، ولم يخرج على طاعة ، بل ظل على سابق اتفاقه مع الأمير ورد على طلب يوسف بأن قال : « حسبنا والله قد قضينا الزمام ولا والله نخلعه » . فكاتب يوسف أهل البلد وأهل ماردة ولقنت (Alicante) ، فأجابوه وكان ذلك فى سنة ١٤١ هـ ، وحل بماردة التى سبق أن لجأ اليها ابان النضال ، وبعد أن جمع الجموع وحشد الحشود سار الى لقنت ثم الى اشبيلية وكان عليها عبد الملك المروانى فاجتمع اليه ناس من حمص وانحاز اليه أهل البلد وانتفخ عسكره على قول المؤرخين حتى صار عشرين ألفا .

خرج الداخل من قرطبة الى حصن المدور فى طريقه الى يوسف، وكانت نية الأمير أن يأخذه من الشمال بينما يأخذه عبد الملك من الجنوب فيصير بين شقى الرحى ، فاتجه يوسف أولا الى المروانى لقلة عساكره وكاد أن يتم له ما أراد ، لولا أن أسرع عبد الله ابن عبد الملك وكان على مورور الى نجدة أبيه ، ودار قتال شديد انتهى بانكسار يوسف وفراره الى فريش (Ferrix) ثم الى فحص البلوط ثم أخذ الى طليطلة بينما تشتت أصحابه فى وديان الأرض .

ومضى يوسف فى البلدان يطلب الأنصار فى وقت قد انصرف عنه الأنصار ، ولما اتاه الخبر فى سنة ١٤٢ هـ بخلاف هشام ابن عذره (٢) والى طليطلة وهو من أهل بيته الفهريين أراد النصر

---

(١) يقال ان النزاع بين يوسف وعبد الرحمن كان على أملاك وعقار وان الأخير لم ينصفه .

(٢) هشام بن عـذرة بن عبدالله الفهـرى وأبوه كان واليا على الأندلس سنة ١٠٧ هـ .

منه . وبينما هو على عشرة أميال من قصبة القوط في الزمن الخالي لقيه عبد الله بن عمر الأنصاري فلما عرفه قال لأولاده ومن معه : « هذا الفهري يفرقد ضاقت عليه الأرض ، وقتله الراحة له والراحة منـــه » . وكم كان سرور عبد الرحمن لهلاك أهل الفتنة وزوال أمرهم ، وكم كان حزنه على هذا الجندي الشجاع الذي ناضـــل الفرنجة والجلالقة زهرة شبابه وأيام حياته .. ولكن عبد الرحمن حين أتاه رأس غريمه استجاب لأحوال عصره وظروف زمانه وأمر فضم الى رأس ولده عبد الرحمن وكان مرتهنا عنده ، ووضعا على قناتين مشهرتين بباب قصر الامارة .

والصميل !! ها هو قد حان حين سيد سادات قيس .. انه لم يشارك في فتنة ولكن عبد الرحمن سأله قبل أن يطارد يوسف الفهري عنه وقال : « لم يهرب حتى استطلع رأيك ، وقد كان لنا عليك النصح » . وذهبت بالأمير الظنون وحسب أن الرجل قد بيت أمرا حين امتنع عن اجابته ، فأمر به فحبس واستمر كذلك حتى مات ، فقد دس عليه عبد الرحمن من خنقه خوفا من ثورة قومه اذا طال عليه الحبس أو قتل بمشهد منهم ، ثم دفعه الى شيوخ مضر فواروه التراب (١) .

وابو الأسود محمد بن يوسف .. لقد رق له قلب الأمير ، وأشفق عليه لصغره وشبابه وتركه في الحبس ، ولكنه فر وقصد الى طليطلة معقل عصبية أبيه فتحصن بها ، فسير اليه الأمير تمام ابن علقمة ، فحاصر المدينة وشدد الحصار حتى سلمت ، وجيء بأبي الأسود الى قرطبة ، وأعيد الى محبسه . ولكن أخاه الأصغر أبا القاسم فر من المدينة قبل أن تستسلم لجيش الامارة ، وسيكون له دوره عما قريب .

وارتاح عبد الرحمن فقد هلك يوسف ومات الصميل وانتهت

---

(١) قيل لما خنق كان سكرانا .

سطوة القيسيين وكان عليه الآن أن يتفرغ للنصارى الذين وغلوا في بلاد المسلمين أيام الفتنة الكبرى ، فان فافلة بن بلاى آثر السلامة وانشغل باللهو والصيد ، ومات بعد سنتين ودفن مع أبيه بكانجاس Cangas وهي حاضرة البلاد ، ولم يكن له عقب فخلفه اذفونش Alfonso بن بطرة (١) Pedro دوق كنتبريه وهو زوج ابنة بلاى ، فانتهز ما جرى من نضال بين المسلمين وبعضهم البعض ، وبدأ الزحف جنوبا وشرقا وكانت بينه وبينهم مساحات واسعة من القفر والخراب ، فافتتحها وقتل من بها من المسلمين وكانوا قلائل . ولما حل القحط ببلاد الأندلس جلا كثير من المسلمين وغالبيتهم من البربر عن تلك الجهات ، وارتحل بعضهم الى افريقية ، فاشتد ساعد اذفونش ، واستولى على لك وليون وسلمنقة (Salamanca (٢) واسترقة وابلة Avila وسقوبية (٣) Segovia ، وامتد ملكه من أعالى أرغونة حتى شاطىء المحيط ومن شارات (٤) وأدى الرمل Sierra Guadaramna حتى خليج بسكاى (Biscay) وكان ذلك وقت دخول الداخل ، ومات سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) .

وخلفه ولده فرويله (Froila) ، وكان قاسيا طاغية ، ولكنه لم يكن على غرار أبيه ، فهادن عبد الرحمن ، وصار يدفع اليه عشرة آلاف أوقية ذهب وعشرة آلاف رطل فضة وعشرة آلاف فرس وعشرة آلاف بغل وألف درع وألف رمح وألف سيف (٥) . وبذلك اطمأن عبد الرحمن الى الجبهة الأسبانية ، وتأهب للخروج الى الفرنج ، وبينما هو كذلك اذا أتاه الخبر بسقوط أربونة .

---

(١) بطرة أى بطرس (Petrus) .

(٢) أو شلمنقة او طلمنكة .

(٣) أو شقوبية .

(٤) شارات أى جبال .

(٥) هذا فى رواية وواضح أن فيها شيئا من المبالغة .

كان صبر المسلمين فى المدينة لا يقدر وكان (بيبين) قد حاصرها بجحافل البرابرة ومن شايعهم من نصـــارى اقطانية والقوط الهاربين بنواحى سبتمانيا ، وكان المسلمون قد ضعف جانبهم بعد الحصار المتكرر من جهة الفرنج ، ولم تصلهم امداد من عبد الرحمن لانشغاله بثورة يوسف الفهرى ، وتربما صبر المسلمون وقتا آخر كعهدهم فى الماضى ، ولكن النصارى من أهل المدينة وكان المسلمون قد آمنوهم على الروح والعرض والمال لم يلبثوا أن غدروا بهم ، فكاتبوا ملك الفرنج على أن يسلموا اليه المدينة بشرط ان يتركهم احرارا فيها ويســـيروا بعرف القــوط وأجابهم الملك ... وفى ذات يوم وكانت الحامية غافلة عما يدبر ازاءها اذا بأهل المدينة يهجمون عليها ويفتكون بنفر عظيم من المسلمين ثم يفتحون الأبواب للفرنج الذين تولوا أمر الباقى .

وقعت الصدمة على قلب عبد الرحمن كوقع الحسام الصلد على الجسد الطري وبينما هو الآن يتجرع آلامه فى صمت ، اذ جاءته أنباء أخرى بخروج أبى القاسم محمد بن يوسف الفهرى الذي سار الى رزق بن النعمان الغسانى بالجزيرة الخضراء ، وكان على مودة من أبيه فحشدا الجموع واســـتوليا على شـــذونة ثم اشبيلية ، فبادر الأمير اليهما ، ودخل المدينة ظافرا بعد ان قتل رزقا ، ولحق أبو القاسم بشذونة وكان فى اعقابه تمام ، فكسر جموعه وجعله فى الأسر بقرطبة وذلك سنة ١٤٣ هـ ..

ظلت اشبيلية سنين أخرى من حياة عبد الرحمن معقلا للعصاة ودعـــاة الفتنة وأهل الخـــلاف ، وقد بدا ذلك منذ ثورة رزق ابن النعمان ، وكان الأمير ذا حكمة وتعقل حين قضى باشبيلية شهورا حتى تمكن من أمرها . وما كاد يستقر بقرطبة حتى بدأت أولى الثورات الهامة بعد ثورة الفهريين وكانت هذه المرة من جهة اليمانية .

لم يكن هدف عبد الرحمن حين قدم الى الأندلس قبل سنوات أن يقيم حزبا مكان حزب أو أن يقدم قبيلا على آخر ، واذا كان قد استعان باليمانية فى نضاله ضد يوسف الفهرى فلم يكن ذلك للأخذ بثأر شقنده سنة ١٣٠ هـ ، وانما كان يرمى الى هدف أبعد من هذا وكانت سياسته بعد أن توطد له الأمر بالأندلس أن يقيم حكومة قوية والا يقدم حزبا على آخر ، لكنه اصطدم فى هـــذه السياسة بعديد من العقبات .

كانت الثورة هذه المرة بزعامة عبد الغافر بن حميد اليحصبى(١) الذى اراد أن يباغت قرطبة فاستولى على ضواحيها ، وخرج اليه عبد الرحمن ، فرأى الثائر ان الفرصة قد سنحت أمامه لاقتحام المدينة وقد غادرها من الجنود خيرتهم ، ولكن ظنه خاب فقد أسرع أميرها الى نجدتها قبل أن يمكر به عبد الغافر وانهزم الثائر بوادى قيس وفر الى لقنت فتبعــه غريمه وهزمه مرة أخرى وكبـــله بالأغلال .

وكم كان صعبا على عبد الرحمن أن يحتمل غدر الأصدقاء فان حيوة بن ملامس الحضرمى غضب من عبد الرحمن ، ربما لأنه عارض فى زواجه من سارة القوطية وكان رؤساء الأندلس يطمعون فيها لأنها حفيدة غيطشة ولما كان فى حوزتها من مال وعقار وما كانت تتمتع به من جمال . فثار بأشبيلية وتغلب على اســـتجه واكثر بلاد الغرب ، وتوافت اليه الجموع فقاتله عبد الرحمن أياما وكان قتاله شديدا ، حتى ان فتى أمية كاد أن ينهزم ، ولكنه صبر الى أن تعب أصحاب حيوة ولحقهم الاعياء والملل فانهزموا ، ومضى حيوة الى ناحية فريش ، فكتب الى الأمير فى العفو واجابه الأمير .

أضحت ولاية طليطلة لحبيب بن عبد الملك القرشى بعــد أن اتخذ عبد الرحمن تمام بن علقمة حاجبا له ، فأثار هذا هشام

---

(١) فى بعض الكتب عبد الغفار .

ابن عذرة وهو واليها قبل تمام ، وكان هشام من ذات الأسرة التى ناضلت عبد الرحمن وستظل تناضله دهرا طويلا ، وساعده فى هذا بعض أنصار أبيه القدامى ، فقد كان عذرة بن عبد الله الفهرى أحد ولاة الأندلس قبل عبد الرحمن بزمن بعيد . ووافق هشاما فى خلافه نفر من الساخطين على عبد الرحمن ، أظهرهم حيوة بن الوليد التجيبى (١) وعثمان (٢) بن حمزة بن عبيد الله ابن عمر بن الخطاب والأول من اليمن والآخر من قريش ، فخرج عبد الرحمن الى طليطلة فى عام ١٤٥ هـ وحاضرها حتى أضر الحصار بالمدينة ، واضطر واليها الى أن يصالحه ويسلمه ولده رهينة عنده فانصرف عنه .

لم يكد عبد الرحمن يستقر بقرطبة حتى علم بأن هشاما قد عاد الى سابق نفاقه ، فغزاه فى السنة التالية ودعاه الى الرجوع عن خلافه ، فلم يستمع اليه ، ولما يئس عبد الرحمن من أمره أمر بابنه الرهينة فضرب عنقه ، ثم جعل الرأس فى المنجنيق ورمى الى أبيه فاحتمل فيه ثكلا ، ولكن طليطلة لم تسلم فرجع عبد الرحمن عنها ثم تجهز من جديد للخروج اليها لولا ان وصله ان الأعلام السود قد رفعت وان القوم بساحل الأندلس قد ارتدوا الى طاعة بنى العباس .

كان عبد الرحمن رغم ما صار اليه من امارة الأندلس لا يزال يذكر تلك الأيام السود التى مر بها قبل أن تصير اليه الأمور فى ذلك الصقع النائى ، وكثيرا ما كان يحز فى نفسه أن تفلت من الدولة الأموية تلك البقعة الواسعة التى تمتد من تخوم الصين حتى البحر المحيط والتى ترفرف عليها الآن أعلام بنى العباس . ولكن عبد الرحمن حين

---

(١) أو اليحصبى .

(٢) أو هشام .

استقر بالأندلس صار يدعو لأبى جعفر (١) وقد يحار المرء فى ذلك ، ولكن الحقيقة أن عبد الرحمن لم يدع للمنصور عن اذعان وطاعة ، وانما كان يخاف أن تنتقص البلاد وهى لم تستقر أمورها بيديه بعد ، كما لم تغب عن ناظريه فى تلك الحقبة من تاريخه ، ما جرى من ثورة عامر العبدرى والحباب الزهرى التى كادت أن تثل دولة يوسف قبل أن يكون هذا من نصيبه . ولكن نفرا من بنى أمية ومواليهم المخلصين الذين ذاقوا من بنى العباس الأمرين وأظهرهم عبد الملك المروانى « شهاب آل مروان » أشاروا على عبد الرحمن بأن تقطع الخطبة لبنى العباس لسوء صنيعهم فى بنى أمية ونقضهم الايمان والعهود ، وخاطبه عبد الملك فى جرأة وحماسة تموج فى بحار من الوجد العميق : « ان لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسى » . وتم لعبد الملك ما أراد .

كان العلاء بن مغيث اليحصبى (٢) من أشراف أهل اليمن فى كورة باجة ، وقد أداه طموحه الى أن ينحاز لبنى العباس فعبر البحر الى افريقية ومكث هناك يسيرا ، ثم عاد ومعه سجل المنصور ، ونزل بساحل باجة فى سنة ١٤٦ هـ (٣) رافعا الرايات السود وداعيا لأبى جعفر المنصور فأجابته اليمنية والفهرية وأهل مصر ، كما انحاز اليه أمية بن قطن بن عبد الملك بن قطن الفهرى وجده هو والى الأندلس الذى قتل على أيدى الشاميين اصحاب عبد الرحمن وأيده غياث بن علقمة اللخمى وهو سيد من سادات اليمن وكان معروفا بتقلبه بين معسكر عبد الرحمن ومعسكر أعدائه .

فزع عبد الرحمن الى الثوار بعد أن استفحل أمرهم وصارت

---

(١) أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية معاصر عبد الرحمن ونديده فى الشهرة تولى الحكم بعد أخيه السفاح ١٣٦ — ١٥٨ .

(٢) ويذكر البعض أنه من حضرموت أو جذام .

(٣) يجعل ابن خلدون ذلك سنة ١٤٩ هـ وهو خطأ .

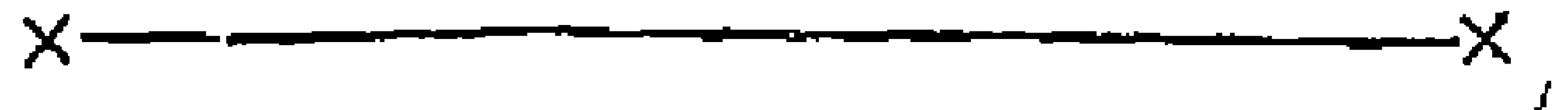
اليهم صولة وسيادة في غربي الأندلس وكثرة أهله من اليمانية . واضطر عبد الرحمن الى أن يسير بدرا في دفعة من أصحابه الى غياث وسار هو في العدد الأوفر يريد العلاء ، وبينما هو في طريقه أتاه الخبر بالصلح بين مولاه الأمين وغياث فقوى ساعده أما ابن قطن فقد اختلف مع الثوار فوضعوه في الأصفاد وفيما بعد سوف يمن عليه عبد الرحمن ويطلقه .

وصل عبد الرحمن الى قرمونة فتحصن بها وضرب الثوار عليه الحصار وكان الحصار شديدا لأن الثوار هذه المرة كانوا مؤيدين من قبل الخلافة ومعهم تفويض رسمي من المنصور بذلك وكان الاعداد لهذه الحركة قد استمر وقتا طويلا وتفرق عن عبد الرحمن أكثر أصحابه وتركوه في سبعمائة من مواليه والمخلصين له من أصحابه ولما شق الأمر عليه أمر بالنار فأوقدت وبأغماد السيوف فأحرقت وصاح عبد الرحمن فيمن معه : « أخرجوا معي الى هذه الجموع خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع » ودارت رحى المعركة .

أسفر النضال بين بني أمية وبني العباس بقرمونة عن مصرع الألوف من أصحاب العلاء لأن جنــود عبد الرحمن لم يلبثوا أن انضموا اليه بعد أن مال ميزان الحرب في صالحه وأخذوا كل من وجدوه منهم بالقتل ولما كان عبد الرحمن قد قاسى أشد المقاساة في حربهم فانه قد خطرت في ذهنه فكرة جريئة أقدم عليها ليجعل من هؤلاء مثلة لكل من تحدثه نفسه بالخروج على طاعته ، فأمر بزعماء الفتنة فاحتزت رؤوسهم وقرطت الصكاك في آذانهم بأسمائهم وأودعت جوالق وأوصى عبد الرحمن بعض التجار فعبرا بها الى القيروان .. وكان فزع عمال بني العباس هنالك لا يقدر .

العلاء !! ماذا كان مصيره ؟؟ لقد أمر الأمير بحشو رأسه ملحا وكافورا وجعل معه لواء المنصور ووضعه فى سفط وبعث به مع واحد من خاصته الى مكة فى جملة الحاج فوافق أبا جعفر قد حج بيت الله فوضعه على باب سرادقه . وارتاع المنصور وملأ قلبه الحزن والأسى وإقال لما انتبه الى نفسه : «عرضناه المسكين للقتل .. الحمد لله الذى جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحرا !! » .

الفصل السابع



عثرات الطريق

القضاء على الثورة فى طليطلة ـ اليمنيون يثورون لمصرع العلاء ـ أبو الصباح اليحصبى يعلن العصيان وعبد الرحمن يفتك به ـ شقنا بن عبد الواحد يدعى فى أهل البيت ويثور على عبد الرحمن ـ اليمنية يعودون الى الثورة ـ مصرع عبد الغافر وحيوة بن ملامس ـ نهاية أمر الفاطمى .

« يا ثعلبـــة : هل لك فى فتحين فى فتح !! قد استرحنا من يوسف فاسترح بنـا من هــــذا ، وتكــون الأندلس قحطانية » .

أبو الصباح

×——————————×

كانت الصـــدمة شديدة على بنى العباس فى بلاد الأندلس ، فلم يحدث أن قاموا بفتنة بعد ذلك الا بزمن طويل . ولكن الأمير واجه فى السنين التالية فتنا أخرى كان القائمون بأمرها من اليمانية ومن بين أصدقائه الذين ناصروه فى أيام محنته ، ثم انقلبوا عليه .. ولكن الأمير قبل أن يرد كيد الأصدقاء كان عليه أن يرد كيد الأعداء.

لم تكن الفتنة فى طليطلة قد هدأت بعد ، وكان هشام بن عذرة لا يزال على عداوته ، فلما فرغ عبد الرحمن من أمر العلاء وصحبه وجه بدرا الى طليطلة وكان ذلك فى سنة ١٤٧ هـ فشدد الحصار ، حتى لم يجد أهل المدينة بعد أن سئموا الحرب وتعطل أعمالهم الا أن يكاتبوه على أن يسلموه المدينة والزعماء الثائرين . وسيق ابن عذرة وحيوة بن الوليد وعثمان بن حمزة ، واقبـل أن يدخل الركب قرطبة توقف باحدى قراها ، وهنالك ألبس الثائرون جببا من صوف وحلقت رؤوسهم ولحاهم وأدخلوا فى سلال ، ثم حملوا

على الحمير ، وأتى بهم على هذه الحال الى المدينة حيث كان الصلب من نصيبهم ، وكتب الأمير الى البلدان يفتح طليطلة .

وزادت بهجة عبد الرحمن فى العام التالى حين جاءه رسوله من الشام وصحبته سليمان بكر ولده ، وان عدلت أخته العزيزة أم الأصبغ عن مفارقة ديار الآباء الى بلاد الجزيرة واتجه عبد الرحمن الى الجلالقة وكان طاغيتهم فرويلة قد ثارت البلاد فى عهده ثورات عارمة ، فانتهز عبد الرحمن الفرصة ، وبعث بدرا الى ألبة والقلاع فأرغمها على أداء الجزية وعادت كثير من المدائن هناك الى طاعة المسلمين .

ولكن عبد الرحمن لم يلبث أن عاد الى النضال من جديد ، فقد رفع اليمانية راية العصيان أخذا بثأر العلاء ، وقادهم فى ذلك سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى فى لبلة ، وشاركه أمره غياث بن علقمة بشذونة وسار المطرى يريد اشبيلية وهى قاعدة العرب وعصب اليمن وعليها عبد الملك المروانى الذى امتنع بها لقلة عساكره وانتظر المدد .

وكان المطرى على وشك أن يأخذ المدينة لولا أن علم بمسير عبد الرحمن من قرطبة فارتد عنها الى قلعة رعواق Alcala Guadiara وما لبث يسيرا حتى فرض عليه عبد الرحمن الحصار فلما اشتدت وطأته حاول أن يجد لنفسه طريقا بين الجيش المحاصر وجرت معركة كبيرة انتهت بمصرع المطرى وهلاك الكثير من أصحابه ولحق الباقون بالقلعة فاعتصموا بها وقدموا عليهم خليفة بن مروان اليحصبى وعاد عبد الرحمن ففرض الحصار حتى لم يجد الناس بعد أن فنيت أزوادهم ووهنت مقاومتهم الا أن يراسلوه فى الصلح على أن يسلموه القلعة وأميرهم الجديد فأجابهم عبد الرحمن وخرب الحصن ورفع رأس خليفة على طرف سنان ، واتجه بعد ذلك الى شذونة ليستأصل بقايا الفتنة ، فاضطر أهلها الى أن يطلبوا الأمان فأمنهم ووفى وعاد الى قرطبة وذلك سنة ١٤٩ هـ .

كان اليمانية قد أصابتهم ضربات شديدة من عبد الرحمن فى السنين الماضية وكان رئيسهم أبو الصباح بن يحيى اليحصبى لا يزال على صفائه مع الأمير ولكن طموح الانسان وولاءه لأهله وعشيرته كانا الجانب الأغلب عند أبى الصباح ، وصبر الرجل سنين طويلة ولم يكن ليرضى بأية حال أن يخرج على أميره ، ولكنه الآن وكان واليا على أشبيلية قد رفع عنها فلم يدم صبره طويلا .

وفعل الوشاة فعلهم فى نفس عبد الرحمن ولربما بدرت من أبى الصباح هفوة فى الماضى حين قال لثعلبة بن عبيد الجذامى يوم أن تغلب عبد الرحمن على يوسف الفهرى بالمسارة : « يا ثعلبة ! هل لك رأى فى فتحين فى فتح » ؟ فرد عليه الرجل مستغربا الأمر : « وكيف ذلك » ؟ . أجاب : « قد استرحنا من يوسف فاسترح بنا من هذا وتكون الأندلس قحطانية » . ووصل الخبر الى سمع عبد الرحمن بصورة مختلفة فاستحلف ثعلبة ، ولم يجد الرجل الا أن يعلمه بما جرى فحفظها الأمير ولكن الى حين .

لما علم عبد الرحمن أن أبا الصباح قد تغير عليه وكان ذلك سنة ١٥٠ هـ أرسل اليه تماما ملاطفا اياه ، حتى احتال عليه فقدم به الى قرطبة وكان فى أربعمائة من اتباعه وخاصته ولربما استقبله عبد الرحمن أول الأمر استقبالا طيبا ، ولكنه لم يلبث أن عاقبه فأغلظ أبو الصباح فى الرد وثار عبد الرحمن وكانت ثورته شديدة ولا نعرف بالضبط كيف قتل أبو الصباح فان المؤرخين يختلفون فى ذلك ولكنه على أية حال لاقى مصيره ولا يبعد أن يكون عبد الرحمن قد عالج هذه المشكلة بمثل ما عالج أبو جعفر مشكلة أبى مسلم الخرسانى وكان قد لعب فى تأسيس الدولة العباسية دورا يشبه ذلك الدور الذى لعبه أبو الصباح فى احياء الدولة الأموية .

ولما علم عبد الرحمن بأن عبد الله بن خالد صهر أبى عثمان قد سار الى أبى الصباح بعهده انحرف عنه واعتزل عبد الله الأمور

ولزم بيته حتى مات ، وبذلك زال رأس اليمانية ومعضده فى دار الامارة وانكسرت شوكتهم ولكن هذه الكسرة لم تكن الأخيرة .

لم يوفق الفاطميون وهم أولاد على وفاطمة فى انشاء دولة لهم الا فى أخريات المائة الثانية بعد الهجرة النبوية الشريفة وهى دولة الادارســـة فى بلاد المغرب وتنتســب الى ادريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين، ولكن بعض الأدعياء الذين انتسبوا على غير حق الى بيت رسول الله حاولوا أن يقيموا لأنفسهم دولا أخرى ، وقد استطاع البعض ذلك والبعض الآخر لم يستطع .

كان شقنا بن عبد الواحد (١) وهو رجل من بربر مكناسة من أهل لشدانية يشتغل فى أول أمره فقيها يعلم الصبيان فى كتاب مبادىء النحو واللغة وعلوم القرآن وبعض صنوف الآداب ولكنه سرعان ما ادعى فى ولد فاطمة الزهراء وتسمى بعبد الله بن محمد وانتقــل الى شنت بريه (٢) (Santa Maria) واجتمع اليه البربر وكانوا أكثرية فى تلك النواحى ورفع راية العصيان فاشتد أمره وطار ذكره .

وكان شقنا على قدر كبير من الدهاء والمكر وسعة الحيلة ، وقد ساعده طبيعة المنطقة التى تكتنفها الجبال وتغطى مساحة واسعة فيها على ان يروغ فى وسطها وبين ثناياها ، فكان اذا أمن انبسط واذا خاف صعد . وسار اليه عبد الرحمن ففر أمامه ، فلما صعب أمره عهد الى والى طليطلة وهو حبيب بن عبد الملك فاستخلف على شنت بريه سليمان بن عثمان بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفــان ، ولكن شــقنا نزل من الجبال ودخل شــنت بريه وقتل سليمان

(١) أو شقيا او سفين كما فى « أخبار مجموعة » وما ورد بالمتن هو الأكثر شــيوعا .

(٢) أو شنتبرية او سنتمريه (Santebria) .

واستفحل سلطانه واستولى على ماردة وقوريه Coria ومدلين والأراضي بين التاجة (Tagus) والوادى انه (١) ولم يجد عبد الرحمن الا أن يباشر الفتنة بنفسه .

غادر عبد الرحمن قرطبة فى سنة ١٥٢ هـ وانحاز شقنا الى الجبال كعادته وأخلى حصنه شيطران ، فارتد عبد الرحمن لما رأى عدم الجدوى ، لكنه قبل أن يبارح الجبهة جعل بدرا فى مكانه سنة ١٥٣ هـ واستمر الدعى الفاطمى يروغ فى الجبال متجنبا لقاء الجيش ثم عاد عبد الرحمن فى العام التالى ، وفرشقنا أمامه فسير اليه أبا عثمان عبيد الله بن عثمان سنة ١٥٥ هـ ولكن العدو أفسد عليه جنده وكان بهم عدد كبير من البربر وانهزم أبو عثمان وهلكت جماعة من بنى أمية فى ذلك النضال واستولى الفاطمى على أسلابهم وهنا اعتزم عبد الرحمن أن يخرج اليه للمرة الرابعة وكان فى جعبته سلاح جديد .

لم يكن كبير البربر فى شرق الأندلس واسمه هلال الميديونى على علاقات طيبة مع شقنا فاستقدمه عبد الرحمن فى جملة أصحابه سنة ١٥٦ هـ وجعله على بلاد الغرب ، وعهد اليه بأمر الفاطمى الذى انسحب الى الجبال ، وكان عبد الرحمن فى أثره وكاد أن ينتهى منه ، لولا أن وصله من قرطبة خبر غير سار .

عادت اليمانية الى الانتقاض وكانت هذه هى المحاولة الأخيرة من جانبها لاعادة سلطانها القديم ، فقد عاد عبد الغافر اليحصبى وحيوة بن ملامس الحضرمى الى الخروج مطالبين بدم أبى الصباح وانتهزا ما جرى من فتنة الفاطمى وخرج الأول بباجة وخرج الآخر باشبيلية واستفحل أمرهما وانضم اليهما جمع كبير من البربر واعتزما المسير الى قرطبة ليأخذاها فى غيبة أميرها ، وكان قد

---

(١) أو وادى يانه أو الوادى اليانع .

استخلف عليها بدرا ، فعاد عبد الرحمن مسرعا لما اتاه كتاب بدر للقاء الثوار .

نزل عبد الرحمن الرصافة تلك الضاحية الجميلة التى بدا بنيانها فى السنوات الأخيرة بالقرب من قرطبة ، وكانت قد كسيت هى الأخرى بسور عظيم يقيها غوائل الزمن ، وتجهز للقاء القوم . ويسأله شهيد بن عيسى بن شهيد (١) وهو أحد كبار رجال الدولة « لو دخلت القصر واسترحت فيه الليلة » ... وقبل أن يكمل الرجل كلامه قاطعه الأمير : « ياشهيد وما فى راحة ليلة ان لم نظفر بما بين أيدينا » . فلما أصبح توجه الى القوم ، والتقى بهم على وادى منبس القريب وهالته جموع اليمن ومن شايعهم من البربر ... عندئذ لم يجد الأمير الا أن يستعمل الحيلة .

استدعى عبد الرحمن مواليه والمخلصين اليه من البربر وقال لهم : « خاطبوا بنى عمكم وعظوهم واعلموهم أنه ان تغلب العرب وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معنا » . فلما اظلم الليل دنا بربر عبد الرحمن من بربر العدوة وخاطبوهم بلغتهم فأجابوهم لما احبوا، وحين نشب القتال فى الصباح قال البربر للعرب : «انالا نحسن الحرب الا فرسانا ، فاحملوا من بقى منا على الخيل»، فارجل العرب وحملوا البربر على خيلهم ، فغدروا بهم وانحرفوا عنهم . وانجلت المعركة عن ثلاثين ألفا قد صرعوا من الثوار ... ... هذا ما تردد فى كتب التاريخ وهو ما لانستبعده لأن هـــذه كانت آخر ثورات اليمانية فى حياة عبد الرحمن لم يتحركوا بعدها ، واقد كانت هناك بعض الحركات الثورية التالية وان قام بها رجال من اليمن الا أنها لا تعبر عن غضـــبة قبيلة أو الرغبة فى أخذ ثأر وانمـــا كانت تعبر أولا وقبل كل شىء عن مصالح شخصية وأهواء خاصة .

---

(١) من كبار القادة فى مصر عبد الرحمن وقد الف أحـــد أحفاده رسالة التوابع والزوابع المشهورة فى الادب .

أراد عبد الرحمن أن يجعل من انتصاره فى هذه المرحلة درسا لجميع من يجرؤ على أن يتحـــداه فى المستقبل فأمر بجمع رؤوس القتلى وجعلها فى حفرة عظيمة وراء وادى منبس ظلت مشهورة فترة طويلة ولم ينج سوى عبد الغافر وعدد قليل جدا من الثوار وقد عبر البحر الى المشرق . وانصرف عبد الرحمن قبل أن يتوجه لقتال الفاطمى الى أن يستأصل بقايا الفتنة فى اشبيلية ، فقطف من رءوس اليمانية فى العام التالى ثلاثين من وجهائهم ... ... ولم تعد المدينة بعد ذلك للانتقاض على أمير الأندلس العظيم .

كانت السنون الثلاث القادمة كلها خيرا وبركة على عبد الرحمن فان فرويلة ملك الجلالقة قد اغتاله شعبه فى احدى الثورات التى قام بها ضـــده وخلفه أورال (١) Aurelio الذى آثـــر أن يعيش فى ســـلام مع المســـلمين على أن يؤدى اليهم الجزية وبذلك أمن عبد الرحمن عدوان الأسبان وانصرف الى الفاطمى فى سنة ١٥٩ هـ وكان أمره قد ضعف وتخلى عنه أكثر اتباعه وكر الثائر الى الجبال كعادته فغزا عبد الرحمن قوريه واثخن فى نواحيها وكان الفاطمى لا يزال يسيطر على شـــنت بريه ومارده ، فتوجه اليه تمـــام وأبو عثمان واعتصم شقنا فى حصن شيطران وحاصره جيش الامارة على غير طائل ثم اضطر ان يرجع عن هذه السنة ، فغادر شقنا وكره فى الجبال ونزل بقرية من قرى شنت بريه يقال لها قرية العيون وهنالك اغتاله اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال، وكنانة بن سعيد الأسود وأتيا برأسه الى عبد الرحمن فى سنة ١٦١ هـ فاستراح خاطره وقدر له أن ينام وقد انزاح عن كاهله كابوس ثقيل .

---

(١) أو أورالى وهو اورليوس .

الفصل الثامن

عبد الرحمن وشارلمان

الفرنجة وقيام الدولة الكارلوفنجية ـ شارلمان يعتلى العرش سنة ٧٦٨ م ـ فتح اقطانية وايطاليا وسكسونيا ـ سليمان ابن يقظان والى برشلونة يحالف الفرنجة ـ عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ينضم الى المؤامرة ـ طبيعة الفتوحات العربية فى جنوب أوربا ـ الخلاف بين ابن يقظان وابن حبيب ـ عبد الرحمن يفتك بابن حبيب ـ شارلمان يجتاز الى أسبانيا سنة ٧٧٨ م ـ ١٦١ هـ ويفتح بنبلونة ـ الحسين بن يحيى الأنصارى يناوىء شارلمان ـ سرقسطة تستعصى على الفرنجة ـ السكسون يعودون الى الثورة ـ شارلمان ينسحب من أسبانيا ـ مأساة رونسفال ـ أغنية رولان ـ عبد الرحمن يتوجه شمالا ـ الاستيلاء على سرقسطة .

« ادعـوك يا ربي يا من
تستند الى صدر العذراء انه
قبل أن أضع قدمي في شعب
سيزر تنتزع روحي مـن بين
أضلعي وأوضـــع معهم في
جوارهم حيث يسكنون ويرقد
جســدي تحت التراب مع
أجسادهم » .

شارلمان

×————————×

بينما عبد الرحمن لا يزال يتابع نضاله ضد أعدائه الذين تكالبوا عليه وضـــد أصدقائه الذين غدروا به كان زمام الأمور في الأرض الكبيرة (أوروبا) قد صار قسمة بين الروم والفرنجة (Franks) (١) وكان الروم في ذلك الحين قـــد تداعت قوتهم وتفوقهم لما جرى في بلادهم من انقسام ديني خطير (٢) وكان الفرنج هم الذين آلت اليهم زعامــة أمم الغرب والنصارى في أقطارهم

---

(١) تعني كلمة فرانك في اللغات الأوربية « حر » والفرنجة قبيلة من قبائل الجرمان استقرت في بلجيكا وفرنسا وأجـــزاء من ألمانيا وخلعوا اسمهم على فرنسا France ولأهمية الفرنجة أصبح العـرب يطلقون على الأوربيين بصفة عامة الفرنجة أو الفرنج أو الأفرنج ومن تطبع بطابعهم تفرنج .

(٢) النزاع بين الايقونيين واللاأيقونيين .

كافة ، وكان من حظ عبد الرحمن أن يواجه الفرنج ويكسر شوكتهم وعدوانهم .. ونحن بصدد هذا يجب أن نكتب مقدمة .

كانت الدولة الأولى للفرنج وهى المعروفة بالميروفنجية (١) (Merovingian) قد تهاوت الى مدارج الضعف والانحلال فى زمان محمد وهرقل (٢) وانقسمت المملكة الواحدة الى ممالك ثلاث وهى أوستراسيا (Austrasia) ونويستريا (Neustria) وبرغنديا (Borgundy) وصارت السلطة فى كل مملكة من هذه الممالك الى أمناء البلاط وخرج هؤلاء الأمناء عن مهمتهم التى كانت موكولة اليهم وهى خدمة الملوك وأضحت بأيديهم السيطرة على سادتهم فى أحوالهم وعوائدهم ، أما الملوك فقد عرفوا فى هذه المرحلة بملوك الشرف أو الملوك الكسالى .

وفى خلال القرن السابع الميلادى آلت أمور مملكة أوستراسيا الى بيت أرنولف (Arnulf) أسقف متس (Metz) ومن سلالته تحدر كارل (Karl) الذى يعرفه الانجليز والفرنسيون بشارل ، وهو قارلة الذى واجه العرب فى معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ (٧٣٢) وتمكن قارلة قبل أن يواتيه الأجل سنة ١٢٣ هـ (٧٤١ م) من أن يكون له السيطرة على فرنسا وشطر واسع من ألمانيا . واستطاع بيبين وهو الابن الأصغر لقارلة أن يدفع عن البابا عدوان اللنبرد (Langobardi) وكانوا يعاكسونه فى بلاده ـ ايطاليا ـ كما انه هو الذى افتتح ثغر أربونة قصبة العرب فى غالة . وقد كافأه البابا بأن خلع عليه تاج الفرنجة سنة ٧٥٤ م ، وتم قص شعر آخر الملوك الميروفنجيين وبدأت الدولة

---

(١) نسبة الى ميروفيج جدكلوفس (Clovis) مؤسس الدولة وهو قلوذية عند العرب .

(٢) أى فى أوائل القرن السابع الميلادى .

الثانية لهم وهى الكـــارلوفنجية Carlovingian) أو الكارولنجية (Carolingian) (١) .

وحين توفى بيبين سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م) انقسمت المملكة بين ولـــديه كارل (Karl) وكـــارلومان (Karloman) ولكن الأخ الأكبر وهو كارل تمكن من اعادة الوحدة الى البلاد بعـد موت أخيه سنة ٧٧١ م وانصرف قارلة هذا الى الفتح والغزو فتمكن فى عشر سنوات من فتح أقطانية فقضى بذلك على بيت أوديس ثم توجه الى ايطاليا وكان اللنبرد لا يزالون على عدائهم مع البابا فأزال ملكهم .

وتوجه قارلة بعد ذلك فى أهم حملاته وكانت الى السكسون (Sexons - Sachsen) فى أدغال المانيـــا ، وكانوا لا يزالـــون على وثنيتهم يعبدون الحجارة والأصنام وكان قتاله معهم أشد قتال مر به خـــلال حكمه الطويل الذى استمر خمسين عاما ، اذ كان يقودهم زعيم صلب شديد المراس هو فيدوكند (Widokind) (٢) وكان السكسون حين تتبدى لهم طلائع الهزيمة يسارعون الى التعميد والتنصـــير ولكنهم حين تذهب عنهم خيل الملك يرجعون الى أصنامهم فيخرجونها من بين الأحراش ويعود النضال وتتكرر الرواية .

وفى احدى هذه المرات فى ربيع سنة ٧٧٧ (١٦٠ هـ) وقد فرغ قارلة من قتـال السكسون واستراح فترة فى بادربورن (Paderborn) تلك الضـــاحية الجميلة التى ابتناها منـــذ قليل فى فستفاليا (Westphalia) اتته رســـل من اســـبانية واستغرب الحاضرون الأمر فلأول مرة يطالعون وجوها وسحنا غريبة عليهم ، فكيف كان ذلك .

---

(١) نسبة الى كارل وهو الابن الاكبر لبيبين والتسمية الاخيرة هى الاشهر .

(٢) أو فيـــدوكنت (Widokint) او فيتكنت (Wittekent) او فيتكند (Wittekind) وما ورد بالمتن هو الاسم القديم .

برز على مسرح الأحداث فى الأندلس فى السنين الأخيرة من حياة عبد الرحمن رجال كثيرون قد ننساهم أو ننسى البعض منهم ولكننا لن ننسى سليمان بن يقظان الاعرابى الكلبى والى برشلونة والحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة وعبد الرحمن ابن حبيب الفهرى المعروف بالسقلابى (١) لطوله وشقرته . وقد تجنب العلامة الهولندى الكبير دوزى (R. Dezy) الصواب عندما أضاف الى جملتهم أبا الأسود محمد بن يوسف الفهرى .. وسنعرف ذلك فى حينه .

لم يكن التحالف بين سليمان بن يقظان وهو رأس الفتنة وبين الفرنج حدثا جديدا فلقد بدأ سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) اى منذ خلصت أربونة لبيبين وقاربت حدود ملك الفرنج حدود والى برشلونة ثم قوى التحالف سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) ، وكان عبد الرحمن مشغولا اذ ذاك بثورة الفاطمى وبأمر اليمانية من أهل اشبيلية ولكنه أرسل قائده ثعلبة بن عبيد الجزامى الى سليمان فانهزم واسر . كما ان عبد الرحمن بن حبيب وهو من أهل بيت يوسف الفهرى كان لا يزال يحمل ما طبع عليه الفهريون من عداوة مريرة لأمير الأندلس المحدث . ويبالغ دوزى حين يذكر أن السقلابى كان صهرا ليوسف متزوجا باحدى بناته ولم نجد هذا الخبر فى المصادر القديمة التى تيسرت لنا أما الحسين بن يحيى

---

(١) أو الصقلبى وقد أوردنا الاسم الأول لقدمه لأن الأصل فى الكلمة (Sklave) وهى تعنى العبد باللغة اللاتينية وأطلقت على الشعوب التى سكنت شرق أوروبا قديما تحت سيادة الجرمان وقد تطورت هذه الكلمة فيما بعد الى (Slave) وهى تعنى عبدا أيضا فى اللغات الأوربية الحديثة .

والسقلابى هذا غير عبد الرحمن بن حبيب الفهرى والى افريقية الذى جاء ذكره فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

فهو من ولد سعد بن عبادة سـيد الخزرج وصاحب رسـول الله .
ولم يكن دوره فى المؤامرة قد ظهر بعد .

كانت المؤامرة قد دبرت فى دقة وعناية فكان علـى سليمان بوصفه واليا على برشلونة أن يؤمن طريق الجيش الفرنجى الذى يقوده الملك بنفسه فى زحفه الى اسبانيا .. ويساعده بأصحابه اليمانية الغاضبين لعبد الرحمن كما كان على ابن حبيب أن يأتى من افريقية بعساكر من البربر الذين لم يكونوا على مودة مع الأمير بسبب فتنة الفاطمى ، وأن يرسوا ابن حبيب بجنوده بساحل تدمير ــ مرسية ــ وبذلك تتشتت جهود عبد الرحمن ، وينتهى حكمه الذى قارب خمسا وعشرين عاما ... ... وقبل أن نتابع سرد الأحداث علينا أن نفسر طبيعة الصراع بين العرب والفرنج فى تلك الحقبة البعيدة من التاريخ .

اذ كان العرب حين تجاوزوا البرتات منذ سنين بعيدة مضت فانهم لم يريدوا بذلك الفتح المنظم الذى يقوم على استعداد حربى منظم وانما ارادوا وهم خلفاء القوط فى أسبانيا ان يخلفوهم أيضا فى سبتمانيا (Septemania) (١) هـــذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان على العرب ان يتعقبوا فلول القوط الهاربة فى تلك البقاع قبل أن يستقر لها الأمر وتكون شوكة أو عصبية فى ظهر العرب . كما ان المسلمين حين توجهوا شمالا انما كانوا يريدون بذلك تقوية العصب وتجديد القوة وتوجيه الصراع .. وكان كل ذلك حيوية ضرورية للأجيال المتتالية بعد فترة تطول أو تقصر من الدعة والركون الى الراحة وانبساط الحياة . أو هى الرغبة فى الغزو والمغنم لأن العرب لم يستطيعوا أن يوجهوا ذلك الصراع الى أهل البـــلاد ، فقـد عاهدوهم وعاقـدوهم على الجزية

---

(١) أى أرض المدن السبعة أهمها اربونة وهى قاعدة الاقليم وكانت سبتمانيا تتبع القوط قبل فتح العرب للأندلس .

أو الصدقة .. فلم يجدوا الا ان ينسابوا شمالا .. ولكن فى حرص وحذر شديدين .. ثم عودة سريعة بخسائر قليلة ومغنم كبير ... وهذا ما حدث بالضبط طيلة اقامة العرب بجنوب غالة حتى القرن العاشر .

وعلى هذا فإن فتوحات العرب فى غالة لم تكن فتوحات بالمعنى المعروف .. وانما كانت أشبه بالمغازى أو الغزوات التى عرفها الأوربيون برزية (Razzia) وهى حروب صغيرة لا تغنى ولا تسمن من جوع .. وكانت معركة بلاط الشهداء هى احدى تلك الرزايا التى كالها العرب للفرنج. ولم تكن نضالا حقيقيا بين الهلال والصليب .. فقد حسبها العرب احدى مغازيهم التى أعتادوها منذ زمان بعيد .. لكنهم لم ينهزموا كما يزعم بعض المؤرخين فى الشرق والغرب .. لهذا فمن الخبط والخطأ ان يشتهر قارلة (الأول) فى التاريخ بالمطرقة (Martellus) ذلك لأن المطرقة قد تكسرت مرات ومرات حين تابع العرب غزواتهم فى غالة ... ... وكان قمينا أن تستمر تلك الغزوات امدا بعيدا .. لولا ما حدث من هياج العصبيات فى بلاد الأندلس كما بينا .. اذن فالعرب لم يكونوا ليهتموا بجبهة الشمال قدر اهتمامهم بأحوالهم وعوائدهم فى جزيرتهم وكان قارلة على العكس .

كان قارلة الجديد هو أعظم ملوك أوروبا فى الزمن الوسيط .. وقد عرفه معاصروه بكارل أو كارولوس .. على حين عرف فيمابعد بشارلمان (Charlemagne) أى شارل الأكبر .. وكان هو الذى آلت اليه مهمة الذب عن الصليب بين معاصريه .. بينما ملوك الروم قد رضخوا للجزية يدفعونها عن طيب خاطر لخلفاء بنى العباس فى بغداد .. وكان الصليب يتراجع فى المشارق والمغارب أمام زحف الهلال المؤزر .. ولذا صار على قارلة أن يظهر أمام قومه الذين أسلموه قيادهم على أنه بطل النصرانية فى أيام

محنتها .. وها هو ذا قد انتهى من أمر الكفار فى ألمانيا .. وكان عليه أن ينتهى من أمر الكفار فى اسبانيا .

ولكن كيف يأتى قارلة الى بلاد الجزيرة وهو لم يدعه أحد من أهلها .. فان الجلالقة عاهدوا عبد الرحمن وصاروا يؤدون اليه الجزية . كما ان النصارى الخاضعين لحكم المسلمين كانوا يعيشون حياة رخية لم يعتادوها أيام القوط .. وقد سمح لهم العرب بعقد مجامعهم ومؤتمراتهم الدينية .. على أن يدفعوا الجزية كأهل ذمة مقابل اعفائهم من الخدمة فى الجيش .. كذلك لم يدع الفرنجة خليفة بنى العباس وعدو عبد الرحمن الأول ليرده الى الطاعة .. فان أبا جعفر المنصور قد تلقى درسا ضمخته دماء العلاء بن مغيث وصحبه اليمانية .. وهو حين تراسل مع ملك الفرنجة السابق سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م) لم يكن ذلك تمهيدا لحلف أو توثيقا لعرى وانما كان كل ما فى الأمر رجلا عظيما يبادل عظيما آخر كل احترام وتقدير .. ولم يكن يقصد التحالف .. وفرق بين التآلف والتحالف اذن فان أحدا لم يدع قارلة سوى نفر من مراق المسلمين الذى خلعوا نقاب الحياء .. وباعوا أوطانهم بيع الرقيق فى أسواق الفرنجة (١) .

كان عبد الرحمن قد انتهى لتوه من فتنة الدعى الفاطمى حين وصله الخبر برسو عبد الرحمن بين حبيب الفهرى على ساحل تدمير .. وانه أعاد ما سبق وفعله العلاء فقد رفع اللواء الأسود وأعلن الطاعة لبنى العباس ودخوله فى طاعة المهدى خليفة أبى جعفر (٢) .. ثم أرسل على الفور الى حليفه سليمان بن يقظان

---

(١) من الذين يصورون الأمر وكأنه مؤامرة دولية ضخمة اشترك فيها العباسيون والفرنجة بكلر Buckeler فى كتابه « هرون الرشيد وشارل العظيم » .

(٢) محمد المهدى بن أبى جعفر المنصورى ووالد هارون الرشيد ١٥٨ هـ/١٦٩ هـ.

يطلب منه تنفيذ ما جرى عليه الاتفاق .. وكان قارلة لم يعبر بجيشه بعد الى اسبانيا .. فتردد سليمان فى اجابته .. وظن أن تبكير ابن حبيب فى الحضـــور ما هو الا مؤامرة مدبرة فأجابه « انى لا أدع عونك » .. واغتاظ الرجل وعاد النزاع القديم بين الفهرية والكلبية .. وزحف بجموعه الى حليفه السابق والتقى فى أحواز برشلونة .. فلحقت الهزيمة بالسقلابى .. وكر راجعا الى تدمير وقد ضعف جانبه .

انتهز عبد الرحمن الداخل الفرصة وسار الى غريمه وسميه ابن حبيب وقبل أن يهاجمه أحرق سفنه حتى يمنعه من الهرب .. فلاذ ابن حبيب بجبال بلنسية .. واســتعمل عبد الرحمن الحيلة وجعل ألف دينار لمن يأتيه برأس ابن حبيب .. فاغتاله رجل من البربر وحمـــل رأسه اليه .. وعاد شرق الأندلس الى طاعة بنى أمية .. وختم الفصل الأول من فصول المؤامرة .

تقول الأسطورة التى ترجع الى القرن الثانى عشر بعد المسيح ان قارلة .. وقد استولى على ما لا حصر له من المـــدن والأمم والبلدان .. اشتدت الرغبة به الى الخلود الى الراحة .. وبينما كان ذات ليلة قابعا يرقب الســـماء رأى الطريق يبدأ فوق بلاد فريزيا وهى اقصى أملاكه شمالا ، واتجه عبر السموات نحـــو الجنوب ، ولم يزل ينحنى فوق الأراضى الشاسعة حتى اســتقر طرفه على جليقية التى تقع خارج الامبراطورية ، ودهش قارلة وعجب .. وفى رؤيا أخرى ناداه الرسول القديس جيمس ، وقال له أن جثمانه الذى لا يعرفه المسلمون ولا المسيحيون يرقد فى تلك الأراضى النـــائية ، وأمـــره بأن ينهض فيستخلص جليقية من المسلمين .. ولم يلتفت قارلة الى الرؤيا أول الأمر ، وتكرر ظهورها ثلاث مرات وفى الرابعة لبى النداء (١) .

---

(١) راجع شارلمان . تاليف ديفز وترجمة الدكتور السيد الباز العرينى .

كان ذلك فى ربيع سنة ٧٧٨ م (١٦١ هـ) حين سار شارلمان عقب عيد القيامة من كاسينى قاصدا الجنوب ، وانضوت تحت لوائه جموع عديدة من البافاريين واللنبرد والبرغنديين والأوستراسيين والبروفنسيين والسبتمانيين . وكانوا يسيرون جماعة فى صفوف متوازية ولكنهم لما وصلوا جبال البرتات تفرقوا الى قسمين ، فواحد اتخذ طريق الشرق بقيادة الدوق برنهارد .. والتزم فى سيره ساحل البحر الى جرندة ، على حين اتخذ الآخر طريق الغرب وقاده الملك بنفسه ، وسار فى الطريق الرومانى القديم فوق آكام جان دى لابور الشاهقة التى تشرف على مفاوز ونسفال الوعرة على أن تعين سرقسطة نقطة للاجتماع واخترق شارلمان بلاد البشكنس واستولى على عاصمتها بنبلونة ، وما كاد يتحد الجيش من جديد ويقترب من سرقسطة حتى انضم اليه سليمان بن يقظان ، بعد أن قدم رهائنه ، وهم جماعة من الأعيان والأكابر من بينهم ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن الذى سبق أن وقع فى أسر سليمان ، وكان قارلة ينتظر أن تفتح سرقسطة له أبوابها ، ولكن شيئا من آماله لم يتحقق .

لم تتح الفرصة للحسين بن يحيى لكى يلعب دوره الا قبيل قدوم قارلة مباشرة ، ولكن الحسين استعان بعصبيته من أهل المدينة والحجاز ، وساعد سليمان فى نضاله ضد عبد الرحمن . ولكن حين اقتربت جموع الفرنج من سرقسطة لم يلبث أن انقلب على حليفه السابق ، ولربما دفعته بقايا مروءة لا تزال تسرى فى دمائه ورثها عن جده العظيم سعد بن عبادة رئيس الأنصار ، ولربما أيضا دفعته ظروف أخرى اذ خاف أن يخرج على عبد الرحمن فيدخل فى نير الفرنج وطغيانهم ، ثم أن قد قنع بالموقف الذى هو فيه واستقلاله عن كل من عبد الرحمن وشارلمان .

انضمت سرقسطة الى معسكر عبد الرحمن فترة حصار قارلة

لها قائدها بجنوده واستطاعت أن تصبر على الحصـــار أسـابيع عديدة دون أن تطيع سنابك الفرنج ، بل ان دفعة من أهالى المدينة الشجعان لم تلبث أن خرجت منها وردت بعض فيالق الجيش المحاصر عن أرباض المدينة . ولكن شارلمان لم يرفع الحصار ، وبينما هو كذلك اذ أتته الأخبـــار من بلاده بأن السكسون قد انتقضوا وخلعوا الطاعة ، بعد عودة زعيمهم الكبير فيدوكند من بلاد الشمال ، وفتك الثوار بالنصارى ورجال الدين ، كما أحرقوا الكنائس وذبحوا جنود الملك . وتفاقم الخطر ولم يجد شارلمان الا أن يكر راجعا الى بلاده فى يوليو سنة ٧٧٨ م (شوال ١٦١ هـ) . لكنه لم ينس أن يأخذ معه سليمان بعد أن ظن أنه خدعه ، كما خرب فى طريقه بنبلونة وغيرها من المدائن ، وكانت من بلاد النصـــارى التى تخضع لحماية المسلمين .

وعاد شارلمان من نفس الطريق الذى جاء منه ، وهو الممـر الذى عرف فيما تلا ذلك من عصور بممر رونسسفال والذى عرفه العرب بباب الشزرى ورسمه الشريف الادريسى بباب شزروا (١) ، وكان الملك قد أوشك أن يجتاز الممر ويترك تلك الصخور العاصية الى سهول أقطانية الفسيحة ، واذا بجلبة تعلو وكتيبة من المسلمين يقودها مطروح وعيشون ابنا سليمان بن يقظان تباغت مؤخـــرة الجيش التى يقـــودها هرودلاند Hruodland والى برطانية (٢) Britania ، وهما لم يكونا وحدهمـا فان البشـكنس وكانوا حانقين عـــلى الفرنج تخريبهم عاصمتهم بنبلونة اتحدوا مع المسلمين ، وفتكوا بمؤخرة جيش الفرنج فى هذا الشعب الضيق .... وخر جمـــاعة من كبار القواد وأصـدقاء الملك بينهم انسـلم Anselm واجيهـارد Eggihard وهرودلاند الذى عرف فيمـا بعد برولان

(١) الاسم اللاتينى القديم للممر هو Portus Sizarae .

(٢) أو بريتون او بريتانى وهى شبه جزيرة بالغرب من شمال فرنسا ومن هذا الاسم اشتق اسم بلاد الانجليز حين هاجر أهل بريتانى اليها .

Roland أو أورلاندو Orlando وتمكن مطروح وعيشون من استنقاذ أبيهما ، ووضعا أيديهما على الغنائم التى كانت مع كتيبة هرودلاند، ثم رجعا الى سرقسطة .

كانت الصدمة شديدة على نفس شارلمان ، لكنه لم يستطع أن يتراجع ليقتص من الجنـاة ، ويســـترد شرفه الذى أهين فى شعب رونسسفال . وانكفأ الأدباء والشعراء فى القرون التالية يدبجون القصص وينشدون الشعر فى وصف ما جرى فى ذلك اليوم . ويطول بنا المقام لو تحدثنا عن أجمل تلك الأساطير وأبرع تلك الأغنيـــات وهى أغنية رولان Chanson de Roland الشهيرة ، وقد نظمها راهب نورمانى فى القرن الحادى عشر من وحى مأساة رونســـــفال ، لتصبح زادا يدفع حماســـة هؤلاء الذين اتخذوا الصـــليب ، واتجهوا الى المشرق لاغتيال الأراضى المقدســـة فى الحملات الصليبية المعروفة . وفيما يلى ترجمة لبعض أبيات هذه الملحمة عن النص الأنجليزى لدوروثى . ل . سيرز .

— ٢٠٨ —

« رولان يا صديقى : سوف أرجع الى فرنسا
وعندما أكون فى لاءون فى ضياعى الخاصة
سوف يأتى الى كثيرون من الممالك الأجنبية والشعوب الاخرى
ويسألون أين هو ذلك القائد العظيم .
وأخبرهم بأنه يرقد ميتا فى أسبانيا
لقد قــدر على أن أقضى حياتى على العرش فى أســـف ..
ولن انقطع يوما عن الحزن والبكاء » .

— ٢٠٩ —

« رولان يا صديقى : أيها المقاتل الجسور والشاب الطيب
عندما أكون فى أيكس (١) تحت سقف كنيستى .
سوف يأتينى كثيرون ويسألون عما جرى
وحينئذ سوف أخبرهم بالحقيقة المرة :
مات حبيبى الذى أخضع شعوبى كلها
سوف يشق السكسون عصا الطاعة ضدى
والمجريون والبلغار وغيرهم من أعدائى
سوف يقصدونهم من روما وبالرمو وأبوليا
والعصابات الأفريقية ويصرخ البحارة
هنا تتجدد متاعبى وشقائى
أين هى تلك العزيمة لتقود جيوشى بعد ذلك
منذ أن مات ذلك الذى يقودنا جميعا الى النصر وا أســـفاه
لفرنسا الجميلة كم أنت موحشة .
وكم أنا تعس مكدود وددت لو قضيت أيضا »
وأخذ شارل يمزق لحيته التى وخطها الشيب .
وينتف شعره بكلتا يديه من جذوره .
وأغمى على مائة ألف فرنسى .

— ٢١٠ —

« رولان يا صديقى أسبغ الله عليك من نعيمه
وأودع روحك فى الجنة المباركة

(١) اختصار ايكس شابل Aix-La. Chapelle وهى آخن .

ذلك الذى ذبحك قد ذبح فرنسا أيضا
كم يبلغ حزنى وددت لو مت
تعسا لأهل بيتى الذين يهلكون فى الذب عنى
أدعوك ياربى يا من تستند الى صدر العذراء
انه قبل أن أضع قدمى فى شعب سيزر (١)
تنتزع روحى من بين أضلعى
وأوضع معهم فى جوارهم حيث يسكنون
ويرقد جسدى تحت التراب مع أجسادهم »
ويبكى شارل وينشب أظافره فى لحيته الفضية .
وهنا يقول دوق نايمون : « ان شارل فى حزن عميق » (٢) .

وعزم عبد الرحمن على التوجه شمالا فان الحلف غير المكتوب الذى كان بينه وبين الحسين بن يحيى قد انفصم عقده بل ان جماعة سليمان بن يقظان لم تلبث أن تفاهمت مع عبد الرحمن ولكن الظروف منعته من السير الى سرقسطة بسبب بعض الفتن الداخلية فى الجنوب وهى فتن صغيرة لم يجر اعدادها بنظام وكانت أسبابها فى الأغلب واهية أولها فتنة دحية الغسانى (٣) وهو ابن أخت أبى عثمان عبيد الله بن عثمان وكان فى جملة قواد عبد الرحمن الذين وجههم لقتال الفاطمى ولكنه لم يلبث أن أنضم اليه ، فلما فشلت ثورة الفاطمى لاذ دحية بالهرب الى بعض حصون البيرة ، فوجه اليه عبد الرحمن شهيد بن عيسى بن شهيد فقتله وكان

(١) Sizer وهو شعب رونسفال الذى قدمنا الحديث عنه .

(٢) ترجمت السيدة دوروثى سايرز هذه الأنشودة عن الأصل الفرنسى القديم ونشرتها سلسلة البنجوين Penguin وقدمت لها بالحديث عن جو الملحمة وملامح العصر الذى يتسم بالأقطاع والفروسية وأخوة السيف مع شرح واف للأنشودة .

(٣) أو وجيه والأصح كما بالمتن .

ذلك فى سنة ١٦٢ هـ كما سير فى نفس العام بدرا الى ابراهيم ابن شجرة البرنسى بموور وكان أيضا من رجال عبد الرحمن من لدن دخوله الأندلس ثم لم تعجبه الحال ، خاصة بعد مقتل شقنا فقتله ، وثار بطليطلة القائد السلمى وكان من حاشية عبد الرحمن ثم خالفه فى بعض الأمور وغاضبه فسير اليه الأمير حبيب بن عبدالملك فحاصره فى طليطلة ثم قتله سنة ١٦٣ هـ . وثار بالجزيرة الخضراء الرماحس بن عبد العزيز الكنانى (١) ، فداهمه عبد الرحمن بنفسه قبل أن يستكمل أهبته ، فعبر البحر الى المشرق .

استراح عبد الرحمن واعتزم الخروج الى الصيد ، فانتهز نفر من أقاربه وأصدقائه فرصة خلو قرطبة من أميرها ، واجتمعوا على الخلاف ، وهم يحيى (٢) بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدى وهو ابن عم عبد الرحمن وعبيد الله بن أبان بن معاوية وهو ابن أخى عبد الرحمن وشاركهما فى الأمر أبو عثمان عبيد الله بن عثمان الذى كان قد سخط من سيده ما فعله بابن أخته دحية . وبينما هم قد اجتمعوا ذات مساء يدبرون أمرهم ، اذ تدلى أحد موالى عبيد الله ابن أبان من سور القصر وكان قد سمع كل شىء ، وأقبل الى بدر وكان هو القائم مقام الأمير وأخبره بما جرى ولما علم الأمير أرسل من قبض على المتآمرين قبل أن يبارحوا بيوتهم وقتل ابن عمه وابن أخيه وتتبع الباقين ، ورفض أن يفعل مع أبى عثمان ما فعله أبو جعفر المنصور مع أبى مسلم الخراسانى ، فاعتزل الرجل السياسة وظل فى داره حتى مات .

بعد أن انتهى حزن عبد الرحمن لغدر الأقارب والأصدقاء اتجهت نيته الى أن يعبر الى الشام ، ويعيد دولة بنى أمية فى بلاد الاسلام ، وأعد السفن اللازمة لذلك بالفعل ، ولكن الرجل لم يلبث

---

(١) فى بعض المصادر الدماحس .

(٢) أو عبد السلام كما فى « نفح الطيب » .

أن عدل عن رأيه ، وارتضى الأمر الواقع الذى اختاره التاريخ له ، وها هو قد انتهى من توطيد نفوذه فى الجنوب ، وكان عليه أن يكسر شوكة الفتنة التى أينعت وترعرعت فى الشمال منذ ما يقرب من عشر سنوات .

كان سليمان بن يقظان قد أفلت من حبس شارلمان وعاد الى سرقسطة ، لكن الحسين بن يحيى وهو حليفه القديم أصبح سيد الموقف ، فدس عليه من قتله بالمسجد يوم جمعة بينما كان يصلى ، متعللا بخيانته العظمى للمسلمين . وفر عيشون بن سليمان الى أربونة وافدا على الفرنج ، فلما علم بمسير عبد الرحمن الى سرقسطة انضم اليه ، وضاق الحصار على الحسين حتى سلم ولده سعيدا رهينة ، فارتحل عنه الأمير ، وأتيحت له الفرصة فى عودته لأن يغزو البشكنس ، فخرب إقلاع بنبلونة حتى لا تكون رأس جسر للفرنج ، وفعل مثل هـــذا بقلهرة وبقيرة (فكيرا) واجتـــاح شرطانية Cerritania (١) وأجبر أميرها الذى كان محالفا للفرنج على الدخول فى طاعته وأداء الجزية ثم عاد الى عاصمته منصورا .

استطاع عبد الرحمن أن يقص أجنحة كل من الحسين بن يحيى وشارلمان ، وعند ما عاد الحسين الى الغدر بعد أن فر ولده سعيد أثناء عودة الأمير الى قرطبة اكتفى بأن سير غالب بن تمام بن علقمة الى الثغر سنة ١٦٥ هـ (٧٨١ م) فأسر جماعة من أصحاب الحسين منهم ابنه يحيى وسيرهم الى سيده فقتلهم واستمر على حصار الحصن .

كانت حملة غالب بن تمام مقدمة للحملة الكبرى يقودها الأمير بنفسه ولكن أعوان الفرنجة فى قرطبة حاولوا تعويقها لحين معاودة شارلمان الغزاة فى الأندلس وقام عيشون بن سليمان بمحاولة يائسة

---

(١) هذا هو الاسم اللاتينى أما الاسم الاسبانى فهو Cerdana

لاغتيال عبد الرحمن بسكين كانت معه لكن أمره انكشف وقتلَ ثم صلب على النهر فى قرطبة . وبدأ سير الحملة وحاصرت سرقسطة حصارا عنيفا ، فنصب عبد الرحمن عليها ستة وثلاثين منجنيقا حتى ملكها عنوة ، ووقع الحسين فى الأسر هو وجماعة من أعوانه فقتلهم عبد الرحمن أقبح قتلة وفر ابنه سعيد ، وأصبح ثعلبة ابن عبيد واليا على المدينة بعد افتدائه من أسر الفرنج .. وعادت سرقسطة الى طاعة عبد الرحمن وانتهت مطامع الفرنج فى بلاد الأندلس .. فقد وجدوها لقمة صعبة عسيرة المذاق !!

الفصل التاسع

آخر الطريق

مؤامرت الأقرباء ــ عودة أبى الأسود الى الثورة ومقتله سنة ١٦٩ هـ ــ مأساة بدر ــ اتمام البناء ــ الجلالقة يرسلون الجزية الى عبد الرحمن ــ شارلمان يطلب المصاهرة ــ موت عبد الرحمن سنة ١٧٢ هـ .

« انما تعبنا أولا لنستريح آخرا ،
وما أرانا الا فى أشد مما كنا » .

بدر

كان عبد الرحمن قد اعتاد فى سالف أيامه أن يواجه غدر الأعداء ثم غدر الأصدقاء وكان عليه الآن أن يواجه غدر أقربائه وأهل بيته ، وقد بدأ ذلك منذ ثلاث سنوات حين تآمر عليه ابن عمه وابن أخيه العزيز الذى فقده ابان الفتنة الكبرى فى بلاد المشرق ، ولم يكن عبد الرحمن سهلا فى حسابه فقد أورد المتآمرين موارد الموت . وها هو الآن قد انتهى من أمر الخوارج فى الشمال القاصى ، وعاد الى قرطبة منصورا ، ولكنه ما كاد يستقر بالرصافة حتى أتاه من أعلمه بخلاف واحد من أهل بيته المقربين اليه وكان عزيزا عليه ، وهو المغيرة ابن أخيه الوليد ، ذلك الأخ الذى بقى له منذ سنين الجهاد . وزادت آلام عبد الرحمن عندما علم بموالاة الثائر الجديد وتواطئه مع واحـــد من أبناء أعدائه وذريتهم ، وهو هذيل بن الصميل ابن حاتم ، وكلنا يعرف كيف كان عبد الرحمن مع أبيه . ولشد ما كان حزن أميرنا وهو يأمر بابن أخيه الى القتل جزاء اجترامه وغدره النعمة التى أنعمها الله عليه ، وانكفأ والحزن يملأ قلبه يأمر بأن يسير أخوه الباقى له على هذه الدنيا الى العدوة مع أهـــله وولده ، ولكنه لم ينس أن يجهزه بعشرة آلاف دينار ، حتى يجعله عزيزا فى ديار الغربة ، ولا يجعل أمية تسأل وهى على الدوام تعطى .

ذكرنا فى مبحث فائت أن عبد الرحمن لما أمر بقتل أبى زيد عبد الرحمن بن يوسف الفهرى لما جرى من انتقاض أبيه أشفق على أخيه أبى الأسود محمد لصغر سنه فتركه فى الحبس (١) ، فاستمر مدة يسيرة ثم كسر السجن وقصد الى طليطلة وهى معقل أبيه فتحصن بها ، وسار اليه تمام فحاصرها حتى سلمت وجىء بأبى الأسود ثانية الى الحبس ، وها هو الآن قد مرت عليه سنون تزيد على الربع قرن ، وقد بدا عليه أنه صار شيخا كبيرا لا يتوقع منه شر ، ولكنه لم يكن كذلك .

كان أبو الأسود على قدر كبير من الدهاء والمكر وسعة الحيلة ، فتعامى فى حبسه وصار لا تطرف له عين ، وبقى كذلك دهرا طويلا ، حتى صح ذلك عند عبد الرحمن . وكان فى أقصى السجن سرداب يفضى الى النهر ، ويخرج اليه المسجونون فيقضون حوائجهم ، وكان الموكلون يهملون أمر صاحبنا لعميه ، وكان هو يتمادى فى الضحك عليهم ، فكان اذا رجع من النهر يقول « من يدل الأعمى على موضعه ؟ !! » فى احدى هذه المرات لقى مولى له على شاطىء النهر ، واتفق معه على أن يأتيه بخيل يحمله عليها . فخرج يوما ومولاه ينتظره فعبر النهر وبضربة أو اثنتين من ساعديه اللذين لم ينهكهما الزمن وصل الى الشاطىء الآخر ، وركب الفرس ولحق بطليطلة ، حيث لا يزال له بعض الصنائع هناك .

لم يهنأ لعبد الرحمن بال حتى خرج من قرطبة فى أثر غريمه ، فالتقيا على الوادى الأحمر بقسطلونة ، واستمر القتال بينهما ، حتى انهزم أبو الأسود ، وسقط على أرض المعركة أربعة آلاف من أصحابه ، سوى من تردى فى النهر أو هلك فى المهاوى . وأتبعه عبد الرحمن بقتل من لحق به حتى جاوز القصر الأبيض واقترب من بلاد الجلالقة ، فتركه عبد الرحمن وعاد الى قرطبة ، ولحق محمد

---

(١) الفصل السادس .

بقورية ، ثم غاود عبد الرحمن مطاردته سنة ١٦٩ هـ ، ففر الثائر أمامه ، وانحاش وحده في غياض وقد تفرق عنه أهله وأصحابه حتى مات منفردا محسورا . وقام بأمره بعده أخوه أبو القاسم ، بيد أنه لم تكن له طاقة بعبد الرحمن ، فاستسلم له وقيل قدم بغير أمان فقتله .

وكانت تلك آخر حروب عبد الرحمن ، وها هو الآن يقترب بخطوات سريعة من الستين وقد قدر له قبل أن تمضي السنتان الأخيرتان من عمره أن تمر به بعض المتاعب ، فقد خرج عليه بنو نفزة وهم أخواله ولكن المؤامرة تكشفت قبل أن تستفحل ، فأوقع بهم وقتل فيهم وشردهم .. كما قدر له أخيرا أن يختصم مع واحد من أصحابه هو أقربهم الى نفسه وأنفذهم الى فؤاده بدر !! ..

من كان يظن أن يخونه مولاه الأمين .. كلا !! ان هذا لم يحدث على الاطلاق وانما الرجل قد تعب من الحرب والكفاح بعد أن استمر سنين عدة يراوده الأمل في أن يستكين الى الراحة ويثوب الى الدعة أو كما قال « انما تعبنا أولا لنستريح آخرا ، وما أرانا الا في أشد مما كنا !! » .

وكان بدر قد لبس لباس الكفاح حتى بانت خروقه ، ووهنت عظام الفارس النبيل بعد أن غادره الشباب منذ بعيد ، فاستمع الى أهل الخلاف دون أن يكون منهم وسكت بعد أن سمع ، وحاول أن يعدل من سياسة الأمير حتى يعم السلام أنحاء الجزيرة ، ولكن عبد الرحمن كان له رأى آخر ، ورأى أن ما قاله بدر قد يكون له أثر في المستقبل ، فعفا عنه لكن جافاه وفارقه ، وقذف به من أعلى المنازل ، وأقصاه الى الثغر ، لا ليتحطم وانما ليستقر في منزلة أعلى من القاع ، اشفاقا عليه من الرضوض والأوجاع ، وهو بعد سمير حياته ورفيق صباه .. وعاش بدر ما تبقى له من عمره يتذكر الأيام الخوالي ويتحسر عليها ويتقوت منها .

وانصرف عبد الرحمن فى أيامه الأخيرة ، وبعد أن سكنت الفتنة وانتهى النضال يشيد تلك الحضارة التى استمرت من بعده قرونا مديدة وكان قد بدأ قبل عشرين عاما فى بناء السور الدائر حول قرطبة، وقد اكتمل بناؤه فيما تلا ذلك من أعوام كما شاد الرصافة مدينته الجميلة ، تشبهها برصافة جده هشام ، هنالك فى الجانب الآخر البعيد من بحر الروم . وانكفأ الآن على اتمام « الرتوش » الأخيرة من قصره المنيف الذى ابتناه بها . كما شرع فى بناء المسجد الجامع فى حاضرة الامارة وجعله على نسق جامع أجداده فى دمشق الفيحاء ، ولكنه لم يقدر له أن يعيش حتى يكتمل بناؤه ، فقد كان ذلك من نصيب ولده وخليفته هشام الرضى .

كانت بلاد الأندلس قد أذعنت قاصيها ودانيها لرايات بنى أمية ولأمير بنى أمية العظيم ، وكان النصارى فى بلاد الجلالقة قد اعترفوا له بالسيادة والتفوق معا منذ عهد فرويلة بن اذفونش وفى عهود خلفائه أورال وشيلون Silon واذفونش ثم مورقاط Mauregatos وقد رضخ هذا الأخير الى الجزية يؤديها الى عبد الرحمن مائة عذراء من زبدة بنات قومه حسنا وبهاء وفتنة ، فملأن قصر الامارة حياة وبهجة وبشاشة ، وأعدن الى الأمير الشيخ بعضا مما فاته من دماء الشباب التى بدأت تتسرب عنه منذ سنين .

وها هو ذا قارلة العظيم ــ شارلمان ــ طاغية الفرنج وأعظم ملوكهم يعمل لعبد الرحمن الحساب الأوفى ، فحصن الجهات الواقعة على الحدود مع المسلمين وملأها بالمقاتلة كما جعل من قطانية وسبتمانيا مملكة واحدة ، وجعل عليها واحدا من أبنائه هو لودفيج Ludwig (١) الذى ولد أيام الكارثة الكبرى عند بوابة الشزرى . ولكن ذلك لم ينفعه وها هو الآن يرضخ لعبد الرحمن الذى أذل كبرياءه ، ويخاطبه ــ كما تقول رواية

---

(١) أو لويس Louis المعروف فى التاريخ بالتقى وهو خليفة شارلمان .

ابن حيان مؤرخ الأندلس القديم ـ يدعوه الى السلم والمصاهرة (١)، فأجابه عبد الرحمن الى السلم واعتذر باعتلال صحته عن المصاهرة .

وكان عبد الرحمن صادقا كل الصدق فى اعتذاره ، فانه قد عاش حياته للكفاح فلما انتهى انتهت ، وهو الآن فى سريره بقصر الامارة ، وقد أحاط به أولاده وأهل بيته وكبار رجال دولته . وقد شمل الجميع سياج من الألم والقلق والشجون ، ينظرون الى الأمير ولا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون . .

ولربما كان الأمير يستطيع أن يخرج من آخر معارك حياته منتصرا ولكن . . هيهات .

وفى يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (٢) (٢ أكتوبر سنة ٧٨٨ م) غادرت روح الأمير عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام هذا الجسد القوى الى مكان بعيد بعيد ، لا يعرفه انسان . . وصلى عليه ولده عبد الله (٣) وأخذ البيعة لهشام ، وكان اذ ذاك بماردة ، وكتب اليه بموت أبيه أمير الأندلس العظيم وبالامارة ، فلحق هشام بقرطبة ولم يقدر له أن يحضر دفن أبيه اذ كان قد توارى فى التراب .

---

(١) هرترود لم تكن قد تزوجت بعد .

(٢) وقيل لعشر خلون من جمادى الأولى سنة ١٧٢ ، كما قيل توفى سنة ١٧١ والأصح كما بالمتن .

(٣) المعروف بالبلنسى .

الفصل العاشر

تقدير وتقدير

وراثة عبد الرحمن ـ ظروف عصره ـ تقواه ـ جهاده ـ تسامحه مع النصارى ـ حبه لأقاربه ـ احسانه الى أصدقائه ـ وصف أبى جعفر المنصور له ـ شجاعته وقيادته ـ طبيعة الحاكم ـ عدله ـ حزمه ـ معاملته للأعداء ـ عبد الرحمن الشاعر ـ تنظيمه للدولة ـ الجيش والأسطول ـ الدور الحكومية ـ سور قرطبة ـ الرصافة ـ القصر ـ الجامع ـ الدولة الأموية بعد عبد الرحمن .

« صــــــقر قريش !!
عبد الرحمن بن معاوية الذى
عبر البحــــر وقطع القفر ..
ووطد الخــــلافة بالأندلس ،
وافتتح الثغور وقتل المارقين
وأذل الجبابرة الثائرين » .

أبو جعفر المنصور

×————————×

وبعد .. فقد كانت تلك هى سيرة عبد الرحمن بن معـــاوية ابن هشام .. صقر قريش والداخل من بنى أمية أرض الأندلس والأول فى أمرائها العظام ، أحد كبار رجـــالها وهم عبد الرحمن ابن معاوية وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبى عامر .

كان مديد القامة نحيف القوام أعور أخشم له ضفيرتان أصهب خفيف العارضين له خال فى وجهه .

أبو زيد وأبو المطرف عبـــد الرحمن .. كان أمويا ، ورث كل ما ينبىء عنه ذلك الأصـــل ، والفرع لا يغيب عن الأصل كثيرا .. وبنو أمية منذ أن غاضب جدهم عمه هاشما وبدأت العداوة بين البيتين القرشيين (١) كانت لهم الرئاسة السياسية فى بنى كنانة ،

(١) صور المقريزى هذه العداوة فى بيتين :

عبـــد شـــمس أضرمت لبنى ها ... شم حـــربا يشيب منها الوليـــد
فابن حرب للمصطفى وابن هنـــد ... لعـــلى وللحســـين يزيد

بينما كانت الرئاسة الروحية لبنى هاشم ، فكأن بيتى عبد مناف قد تسنما مدارج السيادة والتفوق فى قبائل العرب..

ولعل أظهر ما تدل عليه تلك الرئاسة السياسية ما قد عهدنا عن أبى سفيان بن حرب من عداوة مريرة لمحمد رسول الله ، وكيف انه قاد الحرب فى أحد وانتصر ، ظل ثابتا على ما قد ارتآه واعتقده ، حتى شارفت سيوف الله أم القرى ، هنالك أرغمته أحوال السياسة على أن يساير مد الاسلام وقد تكسرت أمامه جيوش الكفران . كما أن ولده القدير وقف بازاء خليفة رسول الله وابن عمه موقف الطود لا يلين أمام عدوان الزمان الى أن تحقق له ما قد سعى اليه من نصر مؤزر وغاية سعيدة .

ولو نحن تتبعنا فروع الشجرة لراعنا مروان وهو شيخ بنى أمية ومجدد دولتهم ، وعبد الملك قاهر الزبيريين وأهل الحجاز والوليد فاتح أسبانيا وتخوم الصين ، وأخيرا مروان بن محمد الذى صمد أمام الأعلام السود لا يتحرك .. ولكن قضاء الله لم يكن بجانبه .

وكان عبد الرحمن قاسيا ، ولكن ظروفه كانت ترغمه بذلك ، فهو قد درج مدارج الطفولة فى عصر هشام ، فعاش حياة تحيط بها أسباب الرفاهة والدعة فى بيوت السادة الغطارفة الأماجد ، وكان سيدا يأمر فيطاع وهو بعد لم يبلغ مبلغ الرجال ولكن الأحداث والخطوب تداعت على أسرته منذ أن قبض جده هشام ، واضطرب أمر بنى أمية الى أن أنزلهم الله من مكانهم العالى ، وصاروا فى جملة الرعايا ، تتعقبهم خيل بنى العباس طالبة ثأر الحسين وزيد ويحيى ابن زيد .. وابراهيم الامام ، وخاضت هذه الخيل فى دماء بنى أمية .. ولكن واحدا منهم حمل حياته على ساعديه ، ولاذ بعد أن قطع الفيافى والفلوات بمكان ناء ، بعيد فى مغرب الأرض ، حتى لا تناله أيدى العباسيين .

لا عجب اذن أن يكون عبد الرحمن بهذه القسوة التى عدها كتاب الفرنج وبخاصة الفرنسيين فى مثالبه ومثالب أسرته ، فهو قد راض القفار وحيدا بلا عون ولا سناد اللهم الا من بعض أهله ومواليه، فجدد لأجداده دولة بالأندلس ، وأراد أن يحفظها من الاغتيال كما صار الحال فى بلاد المشرق . وهو لم يكن كيزيد حين غدر بالحسين ابن بنت رسول الله وأهل بيته ، كما لم يكن كالحجاج ابن يوسف يقطع الرءوس بعد أن أينعت وحان قطافها . ولم يكن كبنى العباس الذين قتلوا زهرة بنى برمك وهم خدامهم منذ أن رفعت الرايات السود . ولم يكن عبد الرحمن كشارلمان الذى ذبح أربعة آلاف وخمسمائة من السكسون ذبح النعاج فى يوم واحد وهم عزل من السلاح ، لأنهم رفضوا أن يخرجوا عن عبادة الأصنام الى دين السيد المسيح (١) .

وعلى ذلك فان عبد الرحمن لم يكن كما وصفه دوزى كبير مؤرخى الفرنج حين يقول :

« كان هم عبد الرحمن الدائم أن يتدبر أحسن الوسائل فى اذلال العرب والبربر الى الطاعة ، وأن يلزمهم بالتعود على النظام والسلام ، ولأجل هذه الغاية لجأ الى كل السبل التى لجأ اليها ملوك القرن الخامس عشر بعد ذلك فى صراعهم مع الاقطاع . ولكنه كان مصيرا محزنا ذلك الذى دفعت اليه يد القدر اسبانيا ، وكانت مهمة محزنة تلك التى أوكلت الى خلفاء عبد الرحمن ، لأن الطريق الذى رسم لهم مؤسس الأسرة أدى الى طغيان السيف . بيد انه من الحق أن نقول ان ملكا لا يستطيع أن يحكم بغير هذه الوسيلة ، وان كان العنف والطغيان ثمة فى ناحية ، ففى الناحية الأخرى كان يوجد الاضطراب والفوضى » .

---

(١) راجع مقال المؤلف بمجلة الرسالة ١٢ نوفمبر ١٩٦٤ بعنوان « صقر قريش بين الأدب والتاريخ » أما السكسون فقد غدر بهم شارلمان فى مذبحة فردن (Verden) المعروفة سنة ٧٨٢ م .

وكانت الأندلس تموج بالعصب من قيس ويمن ومن عرب وبربر ومن مسلمين ونصارى ، وكانت هذه الأضداد فى حروب وكفاح مذ خاض طارق مخاضة الفتح . وصار عبد الرحمن فى حيرة ، وكان عليه أن يقطع رءوس الفتنة قبل أن تضيع رءوس كثيرة لم تلبس لباس الفتنة . وكان عليه أن يتعقب الصليب ، وهو يأوى الى جبال جليقية البعيدة . كما كان عليه أن يكسر شوكة شارلمان ومن شايعه من خوان المسلمين مرة ومرة . وكان عليه أن يجابه معاصره الكبير أبا جعفر المنصور ، وهو قابع فى بغداد يدبر كيف يرمى صقر قريش ، حتى يكسر جناحه ويهوى من عليائه .. وكان عليه أخيرا أن يجابه غدر أصدقائه وغدر أقربائه ، وفى ذلك حديث يطول .

كان عبد الرحمن رجل الله المخلص لدينه المجاهد فى سبيله ، ونـــراه فى نقش خاتمه « بالله يثق عبـــد الرحمن وبه يعتصم » و « عبد الرحمن بقضاء الله راض » ونراه يؤم الناس فى الصلاة ، ويحسن الى رجال الدين ويصلهم ، وهو الذى بدأ بنيان المسجد الأموى الكبير . ودفعه ما طبع عليه من دين وتقوى الى أن يقدم ولده هشاما على ولده سليمان وهو الابن البكر ، لأنه كان كما يذكر المؤرخون « أحسن الناس وجها وأشرفهم نفسا ، الكامل المروءة الحاكم بالكتاب والسنة ، الذى أخذ الزكاة على حلها ووضعها فى حقها ، لم يعرف عنه هفوة فى حداثته ولا زلة فى صباه » .

ونرى عبد الرحمن يعشق الجهاد ، فقد دفع الى أربونة ، وهو لا يزال فى أول نضاله كتيبة من جنوده ، لترد عنها عدوان الفرنج ، مع حاجته الى هؤلاء فى ردع الخوارج وأهل الفتنة . ونراه حين غزا سرقسطة يتحول الى الجلالقة ويثخن فى بلادهم ، ولو قدر له أن يعيش أطول مما عاش ، فلربما جعل اسبانيا كلها ، وإذا خلصت لدين الله الحق . ولكن عبد الرحمن مع حبه للجهاد لم يك قاسيا مع النصارى ، فقد أبقى بأيديهم بيعهم وكنائسهم ولم يفعل معهم

ما فعله الملوك الكاثوليك (١) مع المسلمين بعد زوال ملكهم ، وسمح لهم بعقد مجالسهم الدينية كيف شاءوا وحيث يشاءون ، من ذلك مجمع اشبيلية النصرانى سنة ٧٨٢ م وقد أتاه أساقفة الاسبان من كل حدب وصوب ، ونرى رذريق الطيلطلى (Rudericus Toletanus) وهو مؤرخ اسبانى مسيحى قريب الى عصر عبد الرحمن يصف أمير المسلمين بأنه عادل ، وكفتنا مقالة رذريق .

وكان عبد الرحمن أمويا ، وهذا معناه الولاء لعشيرته وبنى أبيه ، وها هو ذا قد أتاه بنو مروان من أصقاع الأرض يخطبون عنده الملجأ والملاذ . وكان أمير بنى أمية وفيا لأهله ، وقد أثر عنه انه قال : « أعظم ما أنعم الله تعالى به على بعد تمكنى من هذا الأمر ، القدرة على ايواء من يصل الى من أقاربى والتوسع فى الاحسان اليهم ، وكبرى فى أعينهم وأسماعهم ونفوسهم ، بما يمنحنى الله تعالى من هذا السلطان الذى لا منة على فيه لأحد غيره » .

مدحه عبد الملك بن عمر بن مروان وكان يقرض الشعر :

فياز منا أودى بأهلى ومعشرى
لقد صرت فى أحشائنا لاذعا جمرا

ويزداد دهر السوء غشا وظلمة
كأن على شمس الضحى دوننا سترا

الى أن بدا من آل مروان مقمر
أضاء لنا من بعد ظلمته الدهرا

هجان (٢) أصيل الرأى ندب (٣) مهذب
أقام لنا ملكا وشد لنا أزرا

---

(١) فرديناند (Ferdinand) وايزابلا (Isabella) وفيليب الثانى(Phillip II) ...سرهم .

(٢) أى هجين وهو من كان ابوه عربيا وأمه من الموالى (أجنبية) .

(٣) السيد المقدم فى الأمور العظيمة .

وأنبت آمـــالا وأثبت نعمــــــة
وجئنا فألفيناه الكرامة والبــــــرا

أنـــال وأغنى منعمـــا متفضـــلا
وأصفى لنا مأمول أبنـــائه صهرا

فنحن حواليه النجـــوم تجمعت
الى البدر حتى صرن من حوله حجرا

وحين تآمر عليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد مع هذيل بن الصميل بطش به عبد الرحمن ، ولم يكن يستطيع غير هذا لكنه تألم وقال : « ما عجبى الا من هؤلاء القوم ، سعيناه فيما يضجعهم فى مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا بحياتنا ، حتى اذا بلغنا منه الى مطلوبنا ويسر الله تعالى أسبابه ، أقبلوا علينا بالسيوف . ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به حتى أمنوا ، وردت عليهم أخلاف النعم (١)، هزوا اعطافهم وشمخوا بآنافهم وسموا الى العظمى فنازعونا فيما منحه الله تعالى ، فخذلهم بكفرهم النعم ، اذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل ان يعاجلونا ، وأدى ذلك الى ان ساء ظننا فى البرىء منهم ، وساء أيضا ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه » .

وعبد الرحمن هو الوفى لأصدقائه الواصل لهم المقدم أياهم ، نراه حين استقرت اليه الأمور يجعلهم السادة ، ولكنه حين خرجوا عليه لم يجعلهم العبيد ، نرى ضروبا من ذلك فى بدر وأبى عثمان وعبد الله بن خالد وتمام بن علقمة وحيوة بن ملامس وغيرهم كثيرين . وهو يقول فى صاحبه الأخير وكان من أقربهم الى قلبه ، ثم خرج عليه مرة فصفح عنه ، وخرج عليه أخرى ففير صفحه .

فلا خـــــير فى الدنيـــا ولا فى نعيمها
اذا غاب عنهـــا حيـــــوة بن ملامس

---

(١) النعم الكثيرة .

أخو السيف قارى الضيف (١) حقا يراهما
عليه ونـــافى الضـــيم عن كل بائس

وأنشـــأ عبد الرحمن دولته ، وكان مثله فى ذلك معاوية ابن أبى سفيان ، ولكن عبد الرحمن أنشأ دولته فى ظروف أسوأ من ظروف هذا الأموى الكبير ، فقد هلك على بن أبى طالب وكان العقبة الكأداء فى سبيل معاوية ، أما عبد الرحمن فقد ظل أعداؤه يمشون فى هذه الدنيا حتى سنتين قبل رفعه . وقد شهد بذلك أبو جعفر المنصور ، ورأيناه فى بعض مجالسه يحدث أصحابه : « أخبرونى من صـــقر قريش من المـــلوك ؟ » قالـــوا : « ذاك أمير المؤمنين راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعـــداء وحسم الأدواء » (٢) قال : « ما قلتم شـــيئا » قالوا : « فمعاوية » قال : « لا » قالوا : « فعبد الملك بن مروان » قال : « ما قلتم شـــيئا » . قالوا : « يا أمير المؤمنين . فمن هو ؟ ؟ » قـــال : « صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه ، فمصر الأمصار (٣) وجند الأجنـــاد ودون الدواوين ، وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشـــدة شكيمته . أن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بثغره مؤيد برأيه مستصحب لعزمه ، فوطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين » .

صدق والله أبو جعفر وصدق أيضا احمد شوقى فى موشحته الطويلة التى يقول فيها :

---

(١) أى الذى يكرم ضيوفه .

(٢) جمع داء وحسم الأدواء أى عالجها .

(٣) الولايات الاسلامية .

أيها اليائس مت قبل الممـــات ' أو اذا شئت حيـــــاة فالرجا
لا يضق ذرعك عند الأزمـــات ان هى اشتدت وأمـــل فرجا
ذلك الداخــــل لاقى مظلمات لم يكن يأمل فيها مخرجـــــا

وعبد الرحمن هو القائد المحنك والجنـدى الشجاع فى ذات الوقت ، ورث عن أجداده تلك الصفة العتيدة التى تبـــدو أظهر ما تبدو فى معاوية ، وهى الدهاء والمكر وسعة الحيلة . من ذلك ما جرى بينه وبين يوسف الفهرى على المسارة ، حين أوهمـــه بميله الى الصلح وكانت تلك خدعة . ونراه حين اشتدت الحـرب بينه وبين يوسف ورأى شدة مقاساة أصحابه فيقول لهم « هـذا اليوم هو رأس ما يبنى عليه ، اما ذل الدهر واما عز الدهـــر ، فاصـــبروا ساعة فيما لا تشتهون تريحون بها بقية أعمـــاركم فيما تشتهون » ونراه حين ركب البغـل ، وحين كسر أجفـــان السيوف ، وحين استمال البربر فى بعض حروبه ضد أصدقائه ، وكذلك حين سكت عندما وصلته مقالة أبى الصباح ولكن الى وقت معلوم .

وعبد الرحمن قد اجتمع اليه كل ما يلزم الحاكم المستنير من صفات ، وهو فى هذا كقرينه أبى جعفر ، يقول ابن حيان وهو مؤرخ الأندلس الكبير : ــ « كان عبد الرحمن راجح الحلم واسع العلم ، ثاقب الفهم كثير الحذر نافذ العزم بريئا من العجز سريع النهضة متصل الحركة ، لا يخلد الى راحة ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل الأمور الى غيره ثم لا ينفرد فى ابرامها برأيه ، شجاعا مقداما بعيد الغور شديد الحدة قليل الطمأنينة ، بليغا مفوها شاعراً محسنا ، سمحا سخيا طلق اللسان » .

وكان عبد الرحمن مثل عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العـزيز رضى الله عنهما ، فكان يعقد الى العامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ، ويتوصل اليه من أراده من الناس ، فيصل الضعيف

منهم الى رفع ظلامته اليه دون مشقة ـ وكان من عادته أن يأكل من أصحابه من أدرك وقت طعامه ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه ، كما كان يحضر الجنائز ويصلي عليها ، ويصلي بالناس اذا كان حاضرا الجمع والأعياد ، ويخطب على المنابر ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم ولكن ذلك لم يبلغ به حد الاسفاف ، فلم يخرج عن مقام الأمير وما يلزم ذلك من هيبة ووقار ، وحين تقدمت به السن وزادت عليه مشاغل الحياة كان يوكل بذلك ولده هشاما (١) .

وورث عبد الرحمن عن أسرته تلك الصفة العجيبة التى استمرت أجيالا دون أن تموت ، وهى أن تكون للحاكم بين رعيته على قربه منهم هيئة وصولة ، ولكنه مع ذلك يكتشف المواهب واذا كان ابن حيان يستغرب ذلك الشبه العظيم بين عبد الرحمن وأبى جعفر ، فان عبد الرحمن يخالف خصمه فى عدة أمور ، فبقدر ما كان أبو جعفر بخيلا شحيحا بين الناس وطلاب الحوائج كان عبد الرحمن سمحا كريما معطاء ، ولكنه كان يخجل من اراقة ماء الوجه فى اسفاف .

وكان عبد الرحمن سياسيا صارت اليه القدرة على اصطناع الأعداء فى وقت غدر به الأصدقاء ، وذلك يرجع الى مروءة تسكن شخصه ورحمة يموج بها فؤاده . حدث أن ثار عليه ثائر ففزاه وظفر به ، فبينما هو منصرف وقد حمل الثائر على بغل مكبلا اذ نظر اليه وتحته فرس ، فقنع رأس البغل وقال : « يا بغل ماذا تحمل من الشقاق والنفاق ؟ » قال الثائر : « يا فرس ماذا تحمل من العفو والرحمة ؟ » فقال الأمير : « والله لا تذوق موتا على يدى أبدا » وعفا عنه !! .

كان عبد الرحمن من هذا النفر من الشعراء الفرسان ، وتلك

---

(١) نفح الطيب (بتصرف) .

ظاهرة في بني أمية تميزهم عن بني هاشم ، فقد لا نجد بين الآخرين من قال شعرا ، رغم أن عليا رضي الله عنه كان له بعض النثر البديع الذي جمع فيما بعد وبخاصة عند الشريف الرضي ، وجــدنا في بني أمية يزيد بن معاوية وكان شاعرا مبدعا يتخلل شعره الترف ، كما كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك شاعرا ولكن شعره كان يتميز بالمجانة والعهار ، وبعد عصر عبد الرحمن كانت ولادة بنت الخليفة المستكفي الأموي أديبة ذاع صيتها في دنيا الشعر . أما فتانا فكان شاعرا لبيبا ضرب في الشعر بسهم وافر ، ورغم أن الذي وصــل الينا من شعره قليل ، فانه ان دل فانما يدل على شاعرية عالية وحس مرهف . ويقول وهو يخاطب معاهده بالشام وقد انتأت عنه في أبيات أرسلها الى أخته :

أيهـــا الراكب الميمم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
ان جسمى كمــا علمت بأرض وفـــؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننـــا فافترقنا وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينـــا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

واذا كُنا نسمع في شعر عبد الرحمن تلك الرنة من الحـــزن العميق والحنين الى بلاد الشام ، فاننا نرى في شعره أيضا تلك النعرة التي اعتدناها من الأسرة الأموية . جاءه بعض أبناء عمومته فأكرمهم ووصلهم ، واستقل نفر منهم ذلك وقيل ان حظه أعانه في ملك الأندلس وفي رواية أخرى أن بعضهم أشـــاد بموقف الغمر ابن يزيد بن عبد الملك بمجلس عبد الله بن على ساعة قتله فقـــال عبد الرحمن :

شتان من قام ذا امتعـــاض فمر ما قـــال واضـــمحلا
ومن غدا مصلتا لغـــــرم مجردا للعـــداة نصـــلا (١)
فجاب قفـــرا وشـــق بحرا ولم يكن في الأنـــــام كلا

---

(١) السيف . أو حده .

فبز ملكا وشـــــاء عـــزا ومنبرا للخطـــاب فصـــلا
وجنـد الجنـــد حين أودى ومصر المصرحـــــين أجلى
ثم دعـــا أهـــله جميعـــا حيث انتأوا (١) أن هلم أهـلا
فجاء هـــذا طريد جـــوع شـديد روع يخاف قتـــلا
فنال أمنـــا ونال شـــبعا ونال مـــالا ونـــال أهـــلا
ألم يكن حق ذا عـــلى ذا أعظم من منعم ومـــــولى

عبد الرحمن بن معاوية هو صـــدر الدولة الأموية فى بلاد الأندلس ، وهو الذى أسسها ووضع دعامتها ، وقضى ثلث قرن فى صراع مع المقادير ، لتحقيق ما ارتآه وانتواه . وهو فى ذلك جعلها على نسق دولة أجداده فى بلاد المشرق دولة عربية فى بنائها بسيطة التركيب ، لم يدخل عليها هذا التعقيد الذى صار عند بنى العباس فى بغداد . فقد أنشأ الحجابة ، ولكنه استعاض عن الوزارة ببعض شيوخه وأعوانه ، ورغم أنه كان يتولى قيادة الجيوش فى الوقائع الهامة والحروب ، الا أنه جعـــل عليها نفرا من مواليه وصحبه الأوفياء ، كما جعل على الكور والثغور جماعة ممن اختص بهم من أصدقائه وأهل بيته الوافدين عليه .

وكان الجيش فى عصر عبد الرحمن يجاوز المائة الف ، عـدا حرسه الخاص وقوامه أربعون ألفا من البربر (٢) ، كما مال الى اقتناء العبيد والموالى واستمد الكثير من بربر العدوة الذين لم تكن قد أصابتهم عدوى الثورة ضد الأمير ، كما اتجه الى انشاء أسطول كبير فى أواخر أيامه ، ولربما فعل ذلك حين أزمع الرحيل الى الشرق واحياء دولة بنى أمية ، فشاد قواعد لبناء السفن فى بعض الثغور ، مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وأشبيلية والمرية .

ولما استتب له الأمر فى أخريات حياته اتجه الى بنـــاء تلك

---

(١) أى حيث ابتعدوا .

(٢) وبما كان فى تقدير عدد حراسه من البربر بعض المبالغة .

الحضارة التى أينعت وترعرعت طوال الحقبة الواسعة من تاريخ الأندلس ، فأنشأ بقرطبة دارا للسكة تضرب فيها النقود على نحو ما كانت عليه فى دمشق أيام بنى أمية وزنا ونقشا ، كما اهتم بالبريد ، وجعل له محطات تختص به ، وأصلح طرق المواصلات التى كانت مزدهرة فى عصر الامبراطورية الرومانية .

ولطالما كان يعاوده الحنين الى بلاد الشام ملعب الطفولة ومرتع الصبا فبدأ بناء السور الكبير على قرطبة ، وأنشأ منية الرصافة الضاحية الجميلة بأحواز قرطبة الى الشمال الغربى منها ، وجعل فيها قصرا ضخما فخيما تحيط به الحدائق الزاهرة ، وأودعها ما اجتلبه من الشام من النوى المختارة والحبوب الغريبة ، حتى نمت بيمن الجد وحسن التربية فى المدة القريبة أشجار مقيمة ، أثمرت بغرائب الفواكه التى انتشرت عما قليل بأرض الأندلس ، فاعترف بفضلها على أنواعها (١) .

ولكن أشرف ما ابتناه عبد الرحمن فى بلاد الأندلس هو المسجد الجامع الكبير بقرطبة ، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة ، اشتراها عبد الرحمن واجتلب اليها الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد ، حتى بلغ جملة ما أنفقه على المسجد مائة ألف . ولكنه لم يقدر أن يتم بناءه فى عصره ، وانما كان ذلك من نصيب ولده هشام وكان معروفا بالتقوى والصلاح ، وبلغ المسجد أعظم فترات حياته أيام أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر .

يقول أحد الشعراء (٢) فى مدح عبد الرحمن (الداخل) ووصف الجامع :

---

(١) عن المقرى (بتصرف) .

(٢) هو دحية بن محمد البلوى .

وأنفق في دين الالـــــــــه ووجهه
ثمانين ألفــــا من لجين وعسجد (١)

توزعهــــــا في مســـــجد اسه التقى
ومنهجه دين النبى محمـــــــــــد

ترى الذهب النارى فوق سموكه (٢)
يلوح كبرق العارض (٣) المتوقـــــد

بدأ عبد الرحمن ملك بنى أمية في الأندلس ، واستمرت دولته الى ما بعد المائة الرابعة من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ورثت هذه الدولة عن الدولة الأولى في المشرق كل شيء من جهاد الكفار ونصرة الدين واعلاء راية المسلمين ، وشغلت الفترة الزاهرة من تاريخ الأندلس سياسة وبعض مناحيه حضـــارة . ولم تطمع أمم الفرنج في أندلس الاسلام الا بعد زوال دولة بنى أمية، ولم تبـــدأ حركة الريكونكويستا (٤) (La Reconquista) أو حركة استرداد الأراضي النصرانية عند الاسبان الا منذ هلاك هشـــام الخامس المعتد بالله (٥) .

ومن ســـــلالة عبد الرحمن الأول نرى عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله على رأس المائة الرابعة ، وهو الذى أضحى خليفة للمسلمين وأميرا للمؤمنين لما تداعت دولة بنى العباس وحكمها الترك والديلم . وعبد الرحمن هذا هو الذى دام حكمه خمسين عاما ، بلغت الأندلس أثناءها كل ما أملته من عزة وسؤدد ورفاهة ،

---

(١) الفضة والذهب .

(٢) عقود المسجد .

(٣) السحاب .

(٤) من الخطأ ما يزعمه بعض كتاب الفرنج من ان معركة كوفادونجا تعــد بداية حركة الريكونكويستا .

(٥) أو المعتمد وهو آخر خلفاء بنى أمية بالأندلس .

وناشده ملوك الأرض صداقته ، وفي عهده ابتنيت الزهراء وهي من عجائب الدنيا ، ومفخرة للعرب ودليل على عظمة الاسلام .

ومن رجال تلك الدولة الملك الكريم المنصور بالله بن أبي عامر رحمه الله ، وهو ليس أمويا بالدم ، وانما هو يماني عاش في كنف بني أمية حتى صارت اليه أمورهم ، فتوغل في بلاد الجلالقة ، واستعاد الأراضي التي خلصت لهم ابان الفتنة الكبرى قبل دخول الداخل . وعاد بالنصارى يحملون نفائسهم وذخائرهم وصلبانهم وأبواب كنائسهم وأجراسها من الجبال البعيدة في قاصية جليقية الى قرطبة وهي حاضرة الخلافة . وظل العدو يتلقى الضربة بعد الضربة حتى ألقى سلاحه ومال الى أن يصالح ويهادن .

وعبد الرحمن هو الذي مهد للعلم والحضارة بالأندلس ، ولولاه لأكلت البلاد الفتنة وطمعت أمم الفرنج في بلاد الاسلام ، واذا نحن قدرنا ما كانت عليه أوربا في ذلك الحين من جهالة مستمرة وظلام سحيق عرفنا جميعا مقدار ماكان يصيب العالم وحضارتنا الراهنة لو أذعنت الأندلس لسنابك الفرنج . فعبد الرحمن هذا سبب في عظمة ابن زيدون وابن عباد وابن خفاجه وابن قزمان وهو سبب في عظمة ابن رشد وابن زهر وابن طفيل وابن البيطار ، وعبد الرحمن يعد ممن خططوا للزهراء والحمراء وجنة العريف ، ويعد أيضا ممن ساعدوا على وصول الأسبان الى أمريكا والصين ، قد سبقوا في ذلك أمم أوربا .... وعبد الرحمن والأندلس حديثان لو تكلمنا لطال المقام والحيز يسير .

رحمه الله ؟

عبادة عبد الرحمن كحيلة

المراجـع الهامـة

(أ) المراجع القديمة :

ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى الجزرى

١ ـ الكامل فى التـاريخ . الجـزءان الرابع والخامس أخبار مجموعة .

٢ ـ فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم .

الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد الله

٣ ـ الروض المعطار فى خبر الأقطار .

ابن خلدون : ولى الدين عبد الرحمن بن محمد الحضرمى .

٤ ـ العبر وديوان المبتـدأ والخبر . المقـدمة والجزءان الثالث والرابع

الضبى : أحمد بن يحيى

٥ ـ بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير

٦ ـ تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء . الجزءان الخامس والسادس

ابن الطقطقى : محمد بن على بن طباطبا

٧ ــ الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية
ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشى

٨ ــ فتوح مصر والمغرب .
ابن عبد ربه : شهاب الدين أحمد بن محمد الأندلسى

٩ ــ العقد الفريد : الجزء الثالث
ابن عذارى : أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشى

١٠ ــ البيان المغرب فى أخبار الغرب : الجزءان الأول والثانى
أبو الفداء : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن على صاحب حماة

١١ ــ المختصر فى أخبار البشر : الجزء الأول
ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم

١٢ ــ الامامة والسياسة (منسوب اليه) الجزء الثانى
ابن القوطية : أبو بكر القرطبى

١٣ ــ تاريخ افتتاح الأندلس
ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر ابن كثير

١٤ ــ البداية والنهاية فى التاريخ : الجزء التاسع
المراكشى : أبو محمد محيى الدين عبد الواحد بن على التميمى

١٥ ــ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب .
المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين بن على

١٦ ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر : الجزء الثالث
المقرى : ابو العباس أحمد بن محمد التلمسانى
١٧ ــ نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب : الأجزاء الأول والثانى والرابع والسادس .

(ب) المراجع الحديثة :

أدهم : على .
١ ــ صقر قريش
أرسلان : الأمير شكيب
٢ ــ تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وأيطاليا وجزائر البحر المتوسط
٣ ــ الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية : الجزءان الأول والثانى

Buckeler : F. W.
٤ ــ Harun'l Rashid and Charles the Great

Pirenne : Henri.
٥ ــ Mohammed and Charlemagne.

Gibbon : Sir Edward.
٦ ــ History of Decline and Fall of the Roman Empire Vol. 1V,V.

Dozy : Reinhart.
٧ ــ History of the Moslems in Spain Vol. 1

ديفز: هـ . و . كارلس
٨ ــ أوربا فى العصور الوسطى . ترجمة عبد الحميد حمدى محمود

٩ ـ شارلمان : ترجمة السيد الباز العرينى

ديورانت : ول . ترجمة محمد بدران

١٠ ـ قصة الحضارة . المجلد الرابع (عصر الايمان) الجزء الأول

Scott : S. P.

١١ ـ Moorish Empire in Europe Vol. I.

سيديو . ل . ا . ترجمة محمد عادل زعيتر .

١٢ ـ تاريخ العرب العام .

Sayers : Dorothy L.

١٣ ـ The Song of Roland.

Chapman : Charles E.

١٤ ـ A History of Spain.

شوقى : أحمد .

١٥ ـ ديــوان

العبادى : عبد الحميد .

١٦ ـ المجمل فى تاريخ الأندلس .

عنان : محمد عبد الله .

١٧ ـ تراجم اسلامية شرقية وأندلسية .

١٨ ـ دولة الاسلام فى الأندلس . العصر الأول . القسم الأول .

The Cambridge :

١٩ ـ Medieval History. Vol. I, II.

Conde : J. A.
Dominion of the Arabs in Spain Vol. I. ٢٠ —
لوبون : غوستاف . ترجمة محمد عادل زعيتر .
٢١ — حضارة العرب .
لين بول : ستانلى . ترجمة على الجارم .
٢٢ — العرب فى اسبانيا .
مؤنس : حسين .
٢٣ — فجر الأندلس .
النصولى : أنيس زكريا .
٢٤ — الدولة الأموية فى قرطبة , الجزء الأول .
هازارد . هارى . ترجمة ابراهيم زكى خورشيد .
مراجعة محمد مصطفى زيادة .
٢٥ — أطلس التاريخ الاسلامى .

فهرس

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ــ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ــ المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ ــ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ــ عبد الرحمن بن خلدون	د . على عبد الواحد وافى
٥ ــ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ــ معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ــ سيد درويش	د . محمود أحمد الحفنى
٨ ــ عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ــ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ــ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ــ مالك	أمين الخولى
١٢ ــ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ــ الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ــ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ــ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ــ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ ــ الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ــ الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ ــ زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ــ قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ــ شكيب أرسلان	احمد الشرباصى
٢٢ ــ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ــ أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب

اسم الكتاب	المؤلف
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ أحمد زكى	أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى ...	عقيد : محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى	عبد القادر أحمد
٣٣ ـ رشيد رضا	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ أبو حيان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى	د . أحمد كمال زكى
٣٧ ـ الزهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ أبو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ أحمد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجوينى امام الحرمين	د . فوقية حسين
٤١ ـ صلاح الدين الايوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش	أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيق القيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد بن عبد الملك الزيات ...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ ـ أحمد بن طولون	د . سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى	أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الاشرف قانصوه الغورى	د . محمود رزق سليم

اسم الكتاب	المؤلف
٥٣ ـ رفاعة الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ـ زرياب	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد أحمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ ـ المقرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الأفغانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ـ الجاحظ	د . أحمد كمال زكى
٦٣ ـ ابن ماجد	د . أنور عبد العليم
٦٤ ـ محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ ـ محمود سامى البارودى	د . على محمد الحديدى
٦٦ ـ ابن زيدون	على عبد العظيم
٦٧ ـ عمر مكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ ـ موسى بن نصير	د . ابراهيم أحمد العدوى
٦٩ ـ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٠ ـ عبد العزيز بن مروان	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ ـ على مبارك	د . حسين فوزى النجار
٧٢ ـ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٣ ـ العزيز بالله الفاطمى	د . على حسنى الخربوطلى
٧٤ ـ أبو بكر الطرطوشى	د . جمال الدين الشيال
٧٥ ـ يونس بن حبيب	د . حسين نصار
٧٦ ـ صقر قريش	الأستاذ عبادة كحيلة

ملتزم التوزيع
فى الجمهورية العربية المتحدة وجميع انحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ ـ فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ٤٠٠١٢ القاهرة
٢ ـ فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٢ القاهرة
٣ ـ فرع ميدان عرابى	٥ ميدان عرابى	٤٦٣٨٣ القاهرة
٤ ـ فرع الميدان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٨٧ القاهرة
٥ ـ فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧٤٣ القاهرة
٦ ـ فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٢٣ القاهرة
٧ ـ فرع الحسين	ميدان الحسين	القاهرة
٨ ـ فرع الجيزة	٢ ميدان الجيزة	٨٩٨٣١١ القاهرة
٩ ـ فرع أسوان	السوق السياحى	٢٩٣٠ أسوان
١٠ ـ فرع الاسكندرية	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥ الأسكندرية
١١ ـ فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٥٩٤ طنطا
١٢ ـ فرع المنصورة	ميدان المحطة	المنصورة
١٣ ـ فرع أسيوط	شارع الجمهورية	أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

١ ـ مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدى العربى رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ ـ مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ ـ مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ ـ عبد الرحمن الكيالى	شارع ٢٩ آيار ـ دمشق	سوريا
٥ ـ الشركة العربية للتوزيع	ص. ب رقم ٤٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ ـ قاسم الرجب	مكتبة المثنى ـ بغداد	العراق
٧ ـ رجا العيسى	وكالة التوزيع ـ عمان	الأردن
٨ ـ عبد العزيز العيسى	دار التوزيع ص.ب ١٥٧١	الكويت
٩ ـ وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ ـ مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص ـ ليبيا	بنغازى
١١ ـ محمد بشير الفرجانى	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ ـ الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ ـ وكالة الأهرام	شارع الرشيد	عدن
١٤ ـ المكتبة الوطنية	المنامة ـ الخليج العربى	البحرين
١٥ ـ مكتبة العروبة	ص.ب ٤٢ و ٦٤	الدوحة
١٦ ـ عبد الله حسين الرستمانى	المكتبة الأهلية ص.ب ٢٦١	دبى/عمان
١٧ ـ المكتبة الحديثة	ص. ب ٢٧	مسقط
١٨ ـ أحمد سعيد حداد	المكتبة الوطنية ص.ب ٢٥	المكلا
١٩ ـ مكتبة دار القلم	شارع عبد المغنى ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ ـ على ابراهيم بشير	ص. ب ٨٢	أسمرة
٢١ ـ عبد الله قاسم الحرازى	ص. ب ١٧١٤	أديس ابابا
٢٢ ـ مكتبة ستر	ص. ب ٩٣٦	مقديشيو
٢٣ ـ عبد الله غانم محمد	ص. ب ٨٤٥	ممباسا
٢٤ ـ مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ ـ المكتب التجارى الشرقى	٤٠ ش كندهار ص. ب ٢٢٠٥	سنغافورة
٢٦ ـ مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ ـ مكتبة الفجر		وادى مدنى
٢٨ ـ زكى جرجس بطليوس	ص.ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ ـ ابراهيم عبد القيوم	مكتبة القيوم ص.ب ٤٨٠	بور سودان
٣٠ ـ عوض الله محجوب دبورة	مكتبة دبورة ص.ب ٢٤	عطبرة
٣١ ـ عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص.ب ٢١٥	وادى مدنى
٣٢ ـ مصطفى صالح	ص.ب ٤٤	كوستى

أسعار البيع للجمهور فى الدول العربية

سوريا ١٠٠ قرش سورى ـ لبنان ١٠٠ قرش لبنانى ـ الأردن ١٠٠ فلس ـ العراق ١٠٠ فلس ـ الكويت ١٢٠ فلس ـ السودان ١٠٠ مليم ـ ليبيا ١٠٠ مليم ـ قطر ١٥٠ درهم ـ البحرين ١٥٠ فلس ـ عدن ٢٠٠ سنت ـ أديس أبابا ١٠٠ سنت ـ أسمرة ١٠٠ سنت ـ الجزائر ١٥٠ سنتيم